

كتاب الشهر

حكاية

# أولاد حارتنا

■ د. عبد الجليل شلبي

■ د. سمير سرخان

■ محمود أمين العالم



**كتاب**  
**اليوم**  
يصدر عن دار  
أخبار اليوم  
أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :  
**إبراهيم سعد**  
رئيس التحرير :  
**نبيل أباطة**

□ يناير ١٩٩٥

# أسعار كتاب اليوم في الخارج

## ● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية  
قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيهاً مصرياً

## البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٠ دولاراً

أمريكا أو ما يعادله

أوروبا وأمريكا ٣٠ دولاراً

أمريكا الجنوبية واليابان وأستراليا

٤٠ دولاراً أمريكا أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور ●

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات ●

٣ (١) ش الصحافة

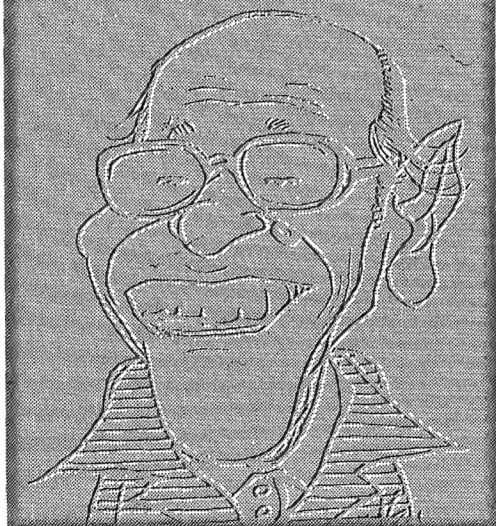
القاهرة ت: ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● تليكس: ٢٢٨٢ - ٢٠٣٢١ دول ●

الجمهورية العظمى ١ دينار	البحرين ١ دينار
المغرب ٢٥ درهم	سلطنة عمان ١ ريال
لبنان ٢٥٠٠ ليرة	قطر ١٠٠ ريال
الأردن ١٥٠٠ فلس	ج. الهند ٢٥ ريال
العراق ٧٠٠٠ فلس	الصومال نيجيريا ٨٠ بنى
الكويت ٧٥٠ فلس	السعودية ٦٠ فرنك
السعودية ١٠ ريالات	الإمارات ١٠ درهم
السودان ٣٢٠٠ قرش	قطر ١٠٠ ريال
تونس ٢ دينار	انجولترا ١,٧٥ جك
الجـزائـر ١٧٥٠ سنتيما	جـنـرـتـسا ١٠ فرنك
موريتانيا ٦٠ ل.س	المانيا ١٠٠ مارك
الحبشة ٦٠٠ سنت	إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة
اليمن ١ دينار	موناكو ٢٥ فلورين
سلطنة عمان ١ ريال	باكستان ٢٥ ليرة
قطر ١٠٠ ريال	سويسرا ٤ فرنك
ج. الهند ٢٥ ريال	اليونان ١٠٠ دراخمة
الصومال نيجيريا ٨٠ بنى	النمسا ٤٠ شغلن
السعودية ٦٠ فرنك	الدنمارك ١٥ كرون
الإمارات ١٠ درهم	السويد ١٥ كرون
قطر ١٠٠ ريال	الهند ٢٥٠ روبية
انجولترا ١,٧٥ جك	كندا ٥٠٠ سنت
جـنـرـتـسا ١٠ فرنك	أمريكا ٥ دولار
المانيا ١٠٠ مارك	البرازيل ٤٠٠ كروزيرو
إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة	استراليا ٤٠٠ سنت
موناكو ٢٥ فلورين	
باكستان ٢٥ ليرة	
سويسرا ٤ فرنك	
اليونان ١٠٠ دراخمة	
النمسا ٤٠ شغلن	
الدنمارك ١٥ كرون	
السويد ١٥ كرون	
الهند ٢٥٠ روبية	
كندا ٥٠٠ سنت	
أمريكا ٥ دولار	
البرازيل ٤٠٠ كروزيرو	
استراليا ٤٠٠ سنت	

مكتبة

# أولاد حارة



■ ■ بقلم:

■ د. عبد الجليل شلبى ■ د. سمير سرهان ■ محمود أمين العالم

● تصميم الغلاف والإخراج الفني

● الغلاف بريشة :

أحمد السعيد

سيد عبدالفتاح

ومزيات

أولاد

حارتما

بقلم:

د. عبد الجليل شبي







## تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله الكريم وأصلى وأسلم على نبيه العظيم خاتم الأنبياء والمرسلين ، اللهم بصرنى بالحق وأعنى على اتباعه . وجنبنى الباطل وحل بينى وبينه ، وأعوذ بك ياربى أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أن أكون بك مغرورا ، اللهم أرزقنى نور العقل واعصمنى من نزغات الهوى .

وبعد فهذه خواطرى عن رواية «أولاد حارتنا» التى أخرجها الكاتب الكبير الأستاذ نجيب محفوظ من نحو ثلاثين عاما ، كنت أقرأها فى جريدة الأهرام ، أو على الأديق كنت أقرأ الكثير من فصولها ، وطفرت فى ذهنى إذ ذاك خواطر كثيرة عنها وعما يريد منها كاتبها .

بدا لى أنها تصف ظلم الإنسان للإنسان ، وبغى الأقوياء ، على المستضعفين ، وهذه نزعة لازمت الإنسان منذ هبط آدم إلى الأرض ، كان يريد أولاده ، أن يعيشوا فى سلام ومحبة ، ولكن عكر هذا السلام ونغص هذه المحبة ابنه قابيل يقتله أخاه ، وكانت هذه أول جريمة وقعت فى الأرض ، ثم تتابعت الجرائم ، وكان المصلحون يظهرون بين

حين وحين يحاولون نشر العدالة وإنصاف المظلومين ، وبث التعاليم والوصايا التي تبعث الطمأنينة في القلوب ، ولكن ينتصر الظلم حتى على الأنبياء ، فيذهبون وتذهب أيضاً تعاليمهم ووصاياهم ، ولما ظهر العلم الحديث لم ينتصر على الظالمين ، بل اتخذ الظالمون منه سلاحاً لهم حتى على العلماء ، الظلم إذن طوفان غامر يجرى في عروق الأكاديميين ، وليس دعاة الإصلاح إلا مرقداً موقوتاً يفرح الناس به إلى حين .

هذه الفكرة بادية جداً في الرواية ، وقد دس المؤلف بين فصولها مواقف كثيرة تزيدها وضوحاً ، ففي كل فصل نجد «فتوة» كبيرة يعتدى على الناس ، ونأظر الوقف والفتوات فضلاً عن اغتيالهم نصيب الناس في الوقف يفرضون عليهم إتاوات ، والناس مع هذا كله يتذرعون بالصبر ويتطلعون إلى يوم ينصفون فيه . والمؤلف لم يعف الجبالوى من هذا الظلم ، فقد طرد كلا من إدريس وأدهم من البيت لأسباب واهية ، ولم يوضح الكاتب كما وضحت الكتب المقدسة تعليل هذا الطرد .

والجبالوى قابع في بيته لا يراه أحد ، ولكنه غير راض عن هذا الظلم ، وهو يشجع المصلحين ويخاطبهم دون أن يرووه ، ويوجههم لهداية الناس وكف الظالمين عن ظلمهم ، وخاطر آخر انقذ في ذهنه بعد أن قابلت الأستاذ نجيب وحديثي عن روايته «ثرثرة على النيل» فقد قال إنه أراد بها تصوير العزلة التي فرضت على المثقفين في العهد الناصري ، فلم يبق لهم عمل وهم معزولون عن حياة الناس إلا ضياع الوقت في العريضة والشراب ، خيل إلى - ولم أفاتحه في ذلك - أنه يشير إلى ما كان يعانيه الناس في ذلك الوقت من كبوت وإرهاق وانتزاع أملاكهم منهم في موجة التأميم التي أودى الناس منها ولم يستطيعوا أن يجأروا بالشكوى . فالرواية تقول لهم لقد أودى الأنبياء من قبل

ولاقوا في سبيل دعواتهم مالا قوا ، فليكن لهم باتباعهم أسوة ، وعسى أن ينتهي الليل ويأتى نور النهار .

وكان الخاطر الذى يضايقنى هو إغراق الرواية فى الشرب والسكر والمخدرات ، حتى الأنبياء المصلحون الذين اختارهم لم يبتعدوا عن الغرز ولم يتنزهوا عن الشراب والتحشيش . ولكن هذه خصيصة نجيب ، فمعظم رواياته تحوى هذه المظاهر . ويبدو أنه لانغماسه فى الحياة الشعبية لاحظ هذه الظاهرة وهى لاتزال شائعة فى حياتنا المصرية رغم التشديد ورغم قسوة العقوبات ، وقد تركت الرواية باب الأمل فى الانصاف والانتقام من الظالمين مفتوحا بعثور «حسن» تابع عرفة على الكراسية التى تحوى أسرار السحر ، كما تركت نفوس أولاد الحارة متشوقة إلى ظهور مخلص عاقدة آمالها على نور سينبثق ليضىء ، حياة الشعب المظلمة .

وكما ساذكر فى التعقيب على الرواية ، كان كل ما أعنيه بالكناية عنها هو حل رموزها ، والمطابقة بينها وبين أصولها فى كتب الأديان والتاريخ . الأستاذ نجيب من قبل أن يحصل على جائزة نوبل معروف فى العالم العربى وغير العربى ، ونسأل الله له مزيدا من النشاط وطول العمر

**د . عبد الجليل شلبى**



## رمزيات أولاد حارتنا

هذه قصة ترمز إلى حياة الأجيال وتطوراتها منذ بدء الخليقة ، أو قد رأى كاتبها أن يقتبس أحداثها من مقدسات العهد القديم ومن الأناجيل ومن القرآن ، ولكن أدخل على هذه الأحداث مايكسوها ثوبا شعبيا ، وقد قال في مقدمتها إنه سجلها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم وكما نقلتها الأجيال ، وهذه حكايات تروى في ألف مناسبة ومناسبة .. وهو قد مزج الخيال والأقوال الشعبية بما اقتبسه من المقدسات .

وفي ادب الأستاذ محفوظ خاصيتان بارزتان في كل أوجل رواياته ، أولاهما تذوقه الحياة الشعبية وإحساسه بمشاعر الطبقة الدنيا والمتوسطة وتجد ذلك في قصصه الطويلة وأقصوصاته القصيرة ، ففي «خان الخليلي» والثلاثية نجد تصويرا واقعا للطبقة المتوسطة ، وفي مثل «التوتة» و«حضرة المحترم» و«المقابلة السامية» تصويرا للطبقة الشعبية والجهاد اليائس للتخلص مما يعانيه المقلون ، ونقرأ

هذه القصص على طولها وعلى قصرها فنتخيل «نجيب محفوظ» يعيش مع هؤلاء الناس ، يحس مشاعرهم وينفذ إلى أعماق نفوسهم ، ويتحدث بلسانهم .

والخاصية الثانية هي إجادته الرمزية ، وحسن الإشارة إلى ما يريد من غير تصريح بشيء ليعسر - مع فهم ما يريد - أن يقع تحت مسئولية قانونية ، وهي سمة الأديب الناضج ، والأمر كما قال «كارلايل» : «الأديب الذى يعاقب على أدبه يستحق العقوبة» وقصة «ثرثرة على النيل» تعنى عزلة المثقفين التى فرضت عليهم فى العهد الناصرى فجعلهم فى عوامة فى النهر فارغين لاعمل لهم إلا الشرب والسكر ، ولا يربطهم بالعالم إلا هذا الممر الخشبي الضئيل «السقالة» وأذكر وأنا فى إنجلترا أننى قرأت بالمصادفة له قصة قصيرة عنوانها «فجنان قهوة» وأعجبت بها أيما إعجاب ، فقد صورت على قصرها مشاعر الناس المرتبطة بنظم الحكم فى بلادهم فى رمزية شائقة جميلة .

وخاصية ثالثة أذكرها لهذا الكاتب الكبير وهى أناته وصبره حين يصور الوقائع التى يريد أو يصف نفسيات الأشخاص الذين يتحدث عنهم ، فهو لا يعنيه الأكتار من تتابع الأحداث ونقل قارئه بسرعة من حادثة لأخرى ، ولكن يعنيه تحليل الحادث وردة إلى أسبابه البعيدة والإيماء إلى ما ينتج عنه .

هذه الخواص الذاتية تبرز بوضوح فى قصة أولاد حارتنا فهى أساس قصة رمزية ، وقد أشبعها - حتى جعلها تفص - بالمظاهر الشعبية ، وسنذكر ذلك فى موضعه بعد ، ثم هو بسبب أناته طويل النفس فى تصوير كل حادث يتعرض له . وهذا - دون ريب - مما أكسب الرواية هذا الطول .

### هيكل الرواية :

الرواية كما ذكرنا تعرض حياة الكون منذ بدء الخليقة ، ومنذ أمر الله - سبحانه الملائكة أن تسجد لأدم واستكبار إبليس عن السجود له وطرده إبليس من الجنة ، ثم اغواء الشيطان أدم أن يأكل من الشجرة المحرمة مما سبب طرده أدم وحواء من الجنة أيضا ، وقد تكاثر نسل أدم ، وبعث الله لهم الرسل مبشرين ومنذرين فكان لكل نبي مع قومه قصة وجهاد .

وقد اختصر الكاتب الكون في حارة ، وصور الجنة ببيت كبير ذي أسوار عالية وبه حديقة ذات أشجار وثمار ، وبدلا من أن يذكر الله الخالق جعل صاحب البيت والحديقة هو الجبلأوى ، وجعله ذا بنية قوية وجبروت وجعل له أملاكا وأحكارا ، وهو يحصل إيجارها ، كما يحصل ثمارا أو أشياء أخرى تجعله ذا دخل وثراء ، مما جعل الحارة تخضع كلها له وتخشاها .

وانتقل الكاتب بسرعة إلى رسالة موسى - عليه السلام - والأحداث التي صادفها في مصر ، وخروجه ببني اسرائيل من مصر وغرق فرعون ، ثم ذكر حياة المسيح ونهايته مقتولا بالنبابيت . ثم عرض حياة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - هجرته وحروبه وانتصاراته . وختم الحديث بموت الجبلأوى - وهذا رمز لنكران وجود الله بظهور المذهب العلماني وتفشى الشيوعية الكافرة بالله .

هذا هو هيكل الرواية ، ونحن نمر بفصولها لا للشرح والتفصيل ، ولكن لبيان الرمزيات التي تحتويها . وظاهر من استعراض الرواية أن المؤلف لم يقف عند الروايات الشعبية بل رجع إلى الكتب المقدسة لأنه ذكر تفاصيل ودقائق لا يعرفها الشعبيون السذج ، وسنشير إليها عند عرضها .

ويلاحظ أن المؤلف اختار لأبطاله أسماء متقاربة ، فأدم هو أدهم ، وإدريس هو إبليس . وأبناء آدم قابيل وهابيل هما همام وقدرى .

ونحن نستعرض هذه الفصول أو هذه الشخصيات مدركون أن استعراضها السريع يذهب بما فيها من عمق التحليل وعرض السمات الشعبية التي تقوم الرواية عليها ، ولا يغنى ذلك عن الرجوع إلى الرواية لمن لهم صبر على القراءة .

والرواية قائمة على الحوار ، والاستاذ نجيب بارع في حوارهِ ، وتبدو فيه السمات الفلسفية ، والاستاذ نجيب — كما هو معروف للجميع — تخرج في قسم الفلسفة من كلية الآداب بجامعة القاهرة ، فدراسته الفلسفية تظهر في إدارة الحوار وتوجيه الأسئلة والأجوبة .

وأسلوب الرواية كما تستدعى أحداثها ومظاهرها الشعبية أسلوب سهل تظهر فيه عبارات عامية كثيرة ، ولكنها لا بد منها لإحكام الموقف ولدقة تصويره ، وننظر بسرعة في فصول الرواية .



## أدهم

أدهم هو آدم

جاء في أول الفصل : « كان مكان حارتنا خلاء ... ولم يكن بالخلاء من قائم إلا البيت الكبير الذى شيده الجبالوى .

وهذا الكلام قائم على ما جاء في الكتب المقدسة ، ففي الحديث الشريف : كان الله ولم يكن غيره » وفي أول سفر التكوين : « .. وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الأرض ظلمة ، وروح الله يرف على وجه الماء ... »

وقصة آدم في الجنة مذكورة في غير سورة من سور القرآن ، فقد علمه الله الأسماء كلها ، وقال للملائكة : اسجدوا لآدم ، وهو سجد تعظيم لا سجد عبادة ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، وكان إبليس رئيس الملائكة في الجنة ، فلما أبى أن يسجد لآدم طرده الله منها .

وجاء في سفر التكوين : « وأنبت الرب الاله من الأرض كل شجرة شهية للنظر جيدة للأكل ، وشجرة الحياة في وسط الجنة شجرة معرفة الخير والشر ... »

وأخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن . قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها .. »

وصور المؤلف هذا الموقف حسبما هدها خياله : « ويوما دعا الواقف أبناءه إلى مجلسه ، وجاء الأبناء جميعا ... فوقفوا بين يديه ، وهم من إجلاله لا يكادون ينظرون نحوه إلا خلسة ... وهو يبدو بطوله وعرضه خلقا فوق الأدميين ، كأنما من كوكب هبط ... وقال بصوت خشن وعميق : « أرى من المستحسن أن يقوم غيري بإدارة الوقف » - لم تكن إدارة الوقف مما يغري قوما استحبوا الفراغ والدعة وعريضة الشباب ، وفضلا عن هذا فإدريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعي للمنصب » وقال الجبلأوى : « وقد وقع اختياري على أخيكم أدهم ليدبر الوقف ... » - عكست الوجوه وقع مفاجأة ... فتبدلت النظرات في سرعة وانفعال » .

هذا الموقف ناظر إلى قول الله : « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. » وسكت الأبناء ودار حوار بين إدريس والجبلأوى لأن إدريس لم يقبل هذا القرار وهو الابن الأكبر ، وجاء في حوار إدريس : « انى وأشقائى أبناء هانم من خيرة النساء ، أما هذا فابن جارية سوداء » .

وقال الجبلأوى : أدهم على دراية بطبائع المستأجرين ، ويعرف أكثرهم بأسمائهم .

وهذا الحوار ناظر إلى تعليم آدم الأسماء ، وإلى قول إبليس : « خلقتني من نار وخلقته من طين » لهذا قال إدريس : أمه سوداء وأمى بيضاء .

ولست أدري كيف طاب للمؤلف أن يصف الجبلأوى بالظلم والعسف المتوالي . فقد جاء في وصفه : اكفهر الوجه الكبير ... وأيقن الجميع أن إدريس قد انتهى ، ما هو إلا مأساة جديدة من المأسى التي

يشهدها هذا البيت صامتا ، كم من سيدة مصونة تحولت بكلمة إلى متسولة تعيسة ، وكم من رجل غادره بعد خدمة طويلة مترنحا يحمل على ظهره العارزى آثار سياط حملت على أطرافها بالرصاص والدم يطفح من فيه وأنفه ... ثم نجده يتقجر عن ثورة جديدة ضحيتها إحدى الخادמות .

وفي مقابل هذا نجد ثناء على ادريس .. حتى ادريس — على قوته وجماله وإسرافه أحيانا في اللهو — لم يسيء قبل ذلك اليوم إلى أحد من إخوته .

على أى حال هم المؤلف أن يضيف على روايته ثوبا شعبيا .

وفي خلق حواء من ضلع آدم ، قال الكاتب : وقف آدم ينظر إلى ظله الملقى على الممشى ... فإذا بظل جديد يمتد من ظله ... بدأ الظل الجديد كأنما يخرج من موضع ضلوعه ، والتفت وراءه فرأى فتاة سمراء .

وجاء في سفر التكوين : « فأوقع الرب الاله سباتا على آدم فنام ، فأخذ واحدة من ضلوعه وملا مكانها لحما ، وبني الرب الاله الضلع الذى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم ... »

أما في القرآن الكريم فجاء : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها .... » وجاء : « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها » .

وصور الكاتب حزن الاخوة على طرد ابليس من القصر وحزن أدهم معهم تصويرا رائعا لعله أراد به أن يمهد لطاعة أدهم لإدريس حين أغراه بفعل ما نهى أبوه عنه ، حتى إننا نجد أدهم — يذهب إلى أبيه شغيفا لإدريس أن يعود ، ولعل ذلك من خديعة ادريس .

وبدلا من النهى عن الأكل من شجرة الحياة .. شجرة معرفة الخير من الشر ، جعل الكاتب للجبالوى وصية ذات شروط عشرة ، وقد خباها في الحجرة الخاصة به ، ولكن إدريس وسوس لأدهم وزين له

أن يدخل الحجرة خلصة ويطلع على الوصية ، وأغرت أميمة - زوج  
أدهم - زوجها بذلك وما زال به حتى خُذع فاطاع ، ولكنه ما كاد يفتح  
العلبة أو الصندوق الذي به الوصية حتى كان أبوه واقفا وراءه .

والذي يلاحظ هنا أن الكاتب أنقاد لما جاء في سفر التكوين من أن  
حواء أغرت آدم بالأكل من الشجرة المحرمة فأكلا منها فبدأ لهما  
جسمهما عاريا ، وفي القرآن الكريم « فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما  
... » ولم يلق المسئولية على حواء ، ولكنهما أيضا ومعهما الشيطان  
خرجوا من الجنة جميعا بعضهم لبعض عدو ، وكذلك فعل المؤلف  
فجعل آدم وزوجه يخرجان من البيت الكبير ، وقد شملهما الندم ،  
وادرى شامت فيهما ساخر منهما .

وأخذ الكاتب أيضا من سفر التكوين أن الرب الاله كان يمشى  
صباحا بين أشجار الجنة ، وعن الأمرين جميعا - اغراء حواء آدم  
بالأكل من الشجرة ، وتمشى الرب الاله بين أشجار الجنة - جاء في  
الاصحاح الثالث من سفر التكوين : ... « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة  
للأكل وأنها بهجة للعيون ... فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها  
منها أيضا فآكل .... وسمعا صوت الرب الاله ماشيا في الجنة عند  
هيوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامراته من وجه الرب الإله ، اختبأ لأن  
سوءاتهما قد ظهرت وأصبحا لا يصلحان للاقامة في الجنة » .

نزل آدم وحواء ونزل ابليس من قبل ، وكان لابليس أو ادريس -  
كما تخيل الكاتب - ذرية ، وهذا ما جاء في الكتب المقدسة أيضا .

وجاء في الاصحاح الرابع من سفر التكوين : وعرف آدم حواء  
امراته فحبلت وولدت قابيل ... ثم عادت فولدت اخاه هابيل ، وكان  
هابيل راعيا للغنم ، وكان قابيل عاملا في الأرض .... « .. وقربا  
قربانين فقبل الله قربان هابيل .

وجاءت القصة في القرآن أيضا : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق

إذ قريبا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك»  
الخ» قطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله» .

وتصرف المؤلف في هذا الموقف بعض التصرف ، فجعل قدرى يقتل  
هماما ويدفنه في التراب ، وكان الجبلاوى قد رضى عن همام وأرسل  
إليه ليحضر إلى بيته ، وذهب همام ودخل البيت الكبير فأنعشاه  
وأعجبه جو الحديقة وقابل الجبلاوى ، وقد رجاء أن يعفو عن أبيه  
وأمه ، ولكن الجبلاوى سمح له بالذهاب إليهما للاستئذان في الإقامة  
مع جده وقال له جده : إنه يحبه لأدبه وأنه سيتزوج في هذا البيت ،  
وعاد همام ليستأذن ولكنه لم يرجع إلى البيت ، وقد قتله أخوه قدرى  
في الصحراء إذ رماه بحجر فقتله .

والكاتب يصور هذا الموقف في حوارات طويلة بين أدهم وأولاده  
وزوجه ، ولم يكن ادريس غائبا عن الموقف كله ، ولكنه ظهر في غير  
مرة ، وظهرت معه ابنته هند ولكنها فجأة اختفت ولا يعلم أحد أين  
ذهبت .

الموقف كله يبرز في صورة شعبية كلا من ادريس وقدرى في  
صورة أشخاص شريرين ، غير أن ادريس خبيث مكر يدبر الشر  
ويمد له أسبابه ، وقدرى مميز بقوته ، وكل منهما ساخط على  
الجبلاوى ، وقد دبت الغيرة في نفس قدرى لاختيار الجبلاوى لهما  
دون قدرى ، وتردد همام في الذهاب وحده إلى البيت الكبير دون نويه  
أو بقاءه معهم على ما هم فيه من بؤس ، وطال الحوار بينه وبين أخيه  
وهما خلف أغنامهما في الصحراء وانتهى جدالهما برمي قدرى أخاه  
بحجر فقتله ، ودفنه في التراب ، ورجع وحده بالأغنام خائفا مرتعدا .

لا ريب أن المؤلف هنا يتبع فلسفة « فرويد » إذ يصف نزعة الشر  
تتغلب على نزعة الخير حتى تنال ما تريد ، فإذا انتهت عملية الشر بقتل  
أو جرح أو سرقة ، وغير ذلك ، استنامت غريزة الشر وشعر المعتدى

بالندم والأسف ، وقد صور المؤلف قدرى في هذه الصورة ، فهو انكر قتل أخيه وتلعثم واضطرب وأخيرا ظهرت الحقيقة ، لقد كانت ملابس قدرى تحمل يقعا من الدم .. وذهبنا معا إلى حيث دفن همام فاستخرجاه وعادا به إلى كوخهم ، ثم دفن بمقبرة تابعة للوقف عند باب النصر ، كان المعزون كثيرين ، واندس ادريس فيهم ولكنه كان يرى أن مصيبتة هى بفقد بنته أشد من موت همام .

وجاء الجبلوى إلى كوخ أدهم ، وعزاه وأخبره أنه عفا عنه ، وأخبره أن الوقف سيكون لذريته .

قرأ ماذا يريد المؤلف بهذا الموقف ؟ لا أتبين منه إلا أنه تصوير لتوبة الله على آدم ، أو قبوله توبته كما جاء في القرآن الكريم : « فلتقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ، « ثم اجتياه ربه فتاب عليه وهدى » .

ومرت الأيام فمات أدهم وماتت زوجته أميمة ثم مات ادريس ، وكبر الأطفال ، وعاد قدرى بعد غيبة طويلة ومعه هند - بنت ادريس - ومعهما انتشر العمران وارتسمت الحارة في صفحة الوجود - ومن كل أولئك جاء أولاد حارتنا .

أذكر هنا أن قصة هابيل وقابيل جاءت هكذا في القرآن الكريم :

« وائل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخى ، فأصبح من النادمين ... »

والآيات لم تذكر أسماء ولدى آدم ، وجاءت أسماءهما في كتب التفسير ، وذكر الشراح لهذا القتل أسبابا منها ، غيرة قابيل لعدم تقبل

قربانه ، وقد كان بخيلا جدا فلم يقدم إلا شيئا حقيرا ، وكان أحدهما زارعا والآخر صاحب غنم ، وقيل أيضا إن حواء كانت تلد ولدا أو بنتا في كل ولادة لها ، وأن الولد الذكر يتزوج من أخت لم تولد توأم له ، وكان من نسلها ابنتان إحداهما حسناء فاتنة وهى توأم لقابيل ولكنه أراد أن يتزوجها ، وحقد على هابيل أن يتزوجها فقتله .

ومهما يكن من أمر قتله ، فإن المؤلف هنا نقل صلب الرواية وهو التنافس والقتل وأيضا السدفن في التراب ، ولكنه زاد في الموقف نقل جثمان همام ودفنه في مكان آخر ، ثم تعزية الجبالوى لأدهم ، ولست أدري ماذا أراد بهذا الموقف إلا إلباسه مظهرا شعبيا .

ثم سرقة قدرى هند بنت ادريس وهربه بها ، وحزن ادريس عليها كل ذلك مما لا تظهر له رمزية في الرواية ، ولكنه تصوير لنزعة الشر ولفشوها .

## جبل

جبل هذا شخصية تقابل أو تمثل شخصية موسى عليه السلام ،  
وموسى عبرانى .

وقصة العبرانيين في مصر أنهم قدموا إليها منذ عهد يوسف  
الصديق عليه السلام ، وعاشوا في مصر آمنين ممتعين وتناسلوا  
وتكاثروا حتى جاء فرعون لا يعرف يوسف ، ولأسباب يذكرها  
المؤرخون غضب على العبرانيين ، فأمر بقتل ذكورهم واستحياء  
نسائهم ، ولما ولد موسى خافت عليه أمه وضعته في تابوت وألقت  
التابوت في اليم ، فدفعت به الأمواج إلى الشاطئ بجانب قصر فرعون  
فعطفت عليه امرأة فرعون ، وقالت لزوجها نتخذة ولدا عسى أن  
ينفعنا ، وربى موسى في بيت فرعون حتى كبر واشتد عوده ، وتعرف  
أصله فمال إلى العبرانيين ، ورثا لحالهم وما يعانون من تعذيب  
فرعون لهم فانضم إليهم ، جاء هذا في غير سورة من القرآن :

« وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فالقيه في اليم  
ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه



آل فرعون . . «وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو يتَّخذه ولدا» . .

« ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقدفيه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له » .

وجاء في سفر الخروج تفصيل أوسع :

« وكلم ملك مصر قابليتي العبرانيات ... وقال : حينما تولدان العبرانيات ... إن كان ابنا فاقتلوه ، وإن كان بنتا فتحيا ، ولكن القابليتين خافتا الله ولم تفعلتا .

ثم أمر فرعون جميع شعبه قائلا : «كل ابن يولد تطرحونه في النهر لكن كل بنت تستحيونها» .

وأم موسى « لما رآته أنه حسن خبأته ثلاثة أشهر ، ولما لم يمكنها أن تخبئه بعد ، أخذت له سقطا من البردى وطلته بالحُمُرَ والزفت ووضعت الولد فيه ، ووضعت بين الحلفا ، على حافة النهر .

فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل ... فرأت السقط بين الحلفا ، فأرسلت أمتها وفتحته ولما فتحته رأت الولد وإذا هو صبي يبكي فرقت له ، وقالت : هذا من أولاد العبرانيين .

وتصرف مؤلف القصة « أولاد حارتنا » في هذا تصرفا غير بعيد ، قال : « منذ عشرين عاما رأت الهانم ( هدى هانم امرأة ناظر الوقف ) طفلا عاريا يستحم في حفرة مملوءة بمياه الأمطار ، ومضت تتسلل بمشاهدته فمال قلبها الذي حرمه العقم من نعمة الأمومة إليه ، أرسلت من حمله إليها وهو خائف يبكي ، وتحرت عنه فعلمت أنه طفل يتيم ترعاه بياعة دجاج ، استدعت الهانم بياعة الدجاج وطلبت منها أن تتنازل لها عن الطفل فرحبت بذلك كل الترحيب ، هكذا نشأ جبل في بيت الناظر وفي رعاية حضرته ينعم بأسعد أمومة في الجارة جميعا ،

وأدخل الكتاب فتعلم القراءة والكتابة «ولما بلغ رشده ولاه الأفندي إدارة الوقف» وكان ينادى في كل بقعة فيها للوقوف أملاك باسم : «حضرة الوكيل» وتتابع نظرات الاجلال والإكبار له أينما حل ، واستمرت حياته ودودا رحية حتى كانت ثورة وتمرد آل كبدان .

ولم يكن المؤلف حريصا على أن يذكر كل ما جاء في الكتب المقدسة فقد جاء في القرآن وفي التوراة أن موسى رُدَّ إلى أمه لترضعه ، فتربى في حضنها على أنه ولد لغيرها . جاء في سفر الخروج :

« فقالت اخته لابنة فرعون هل أذهب وأدعو لك امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد ؟ فقالت لها ابنة فرعون : اذهبي بهذا الولد وارضعيه لي ، وأنا أعطى أجرتك ، فأخذت المرأة الولد وأرضعته ولما كبر الولد جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ابناء ، ودعت اسمه موسى وقالت : إنى انتشلته من الماء . »

وفي القرآن الكريم :

« وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ، وهم له ناصحون ، فرددناه إلى أمه كي تقرر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . »

ولم يكن المؤلف بحاجة إلى ذكر شيء من هذا لأنه لم يذكر أن أم موسى ألقته في اليم رضيعا ، ولكنه ذكر أنه كان يلهو ويلعب في بركة ماء ، وعمره ست سنوات فلا حاجة به إذن إلى الرضاعة ، ولم يضع ذلك شيئا من بهاء القصة وتسلسل أحداثها .

وفي القرآن أن امرأة فرعون هي التي التقطت الطفل ورغبت في تربيته لديها ، وفي التوراة أنها ابنة فرعون ، والمؤلف افترض امرأة فرعون عقيما محرومة من نعمة الأمومة ، فلا بنت إذن لفرعون تلتقط رضيعا ، كذلك ليس هو بحاجة إلى ذكر إلقائه في اليم .

وجاء في بعض أقوال الشراح : أن امرأة فرعون كانت عقيما لم تلد ؛ لذلك رغبت في تبني هذا الطفل .

ولم يكن من هم المؤلف على أى حال أن يتقيد بالتصووص الدينية .

والمعروف عن حياة موسى عليه السلام أنها مرت بمراحل : ميلاده ونشأته ، ثم قتله رجلا مصريا وهربه إلى مدين ، ثم زواجه من بنت شعيب « يثرون » . ثم عودته إلى مصر لاستخلاص بنى اسرائيل من ظلم فرعون ، ثم مقابلة السحرة وانتصاره عليهم ، ثم مجاوزته وقومه البحر ، ثم أخيرا حياته معهم في التيه ..

ولعرض هذه المواقف كان نفس الكاتب طويلا ممتدا ، وقد مهد لكل مرحلة تمهيدا يتقبل الأحداث التي وقعت بها ، وقد رأينا بداية حياته ، والمؤلف ذكرها عرضا عقب حديثه عن معاناة « آل حمدان » في مصر ، وآل حمدان هم بنو اسرائيل .

بدأ حديثه بوصف الحارة .. حارة الجبلأوى أطول حارة في المنطقة ، أكثر بيوتها ربوع ، وفيها ربع أو حتى آل حمدان ، أما البيت الكبير فقد ترك على رأس الحارة خاليا من جميع الجهات ، وقد أغلقت أبوابه على صاحبه وخدمه المقربين ، ومات أبناء الجبلأوى مبكرين ولم يبق من نريتهم إلا الأفندى ناظر الوقف في ذلك الوقت ، أما سكان الحارة فكانوا من الطبقة البسيطة الكادحة وراء لقمة العيش .

وأبدع المؤلف في وصف الحياة الشعبية في هذه الحارة ، وواتته طبيعته وتذوقه لحياة الشعبين ، ثم موهبته في إدارة الحوار ، فأطال في هذا الوصف ، وغص حديثه بالأسماء الشعبية أو « البلدية » القوم ضعاف ، ولذلك كل شاب يأنس في نفسه القوة والفتوة يفرض نفسه على الحى الذى يقيم فيه ، ومن أسمائهم : قدرة والبيثى وأبو سريع وجمودة ... ولكن الفتوة الذى كانت له السيطرة على الجميع هو « زقلط » ولذلك رأى الأفندى صاحب الوقف أن يستعين به لينفذ

أوامره أو يدفع عنه ما قد يتهدده ، لذلك قرّبه إليه ورتب له راتباً عظيماً من مال الوقف ، وكان بيته يقابل بيت الناظر ، فأقام به مكتفياً براتبه الواسع ، ولذلك هدأت المعارك في الحارة ، ولم تحدث إلا نادراً .

ولعب الطمع بقلب الناظر فأخذ يغالط في الحساب ويقتّر الأرزاق ثم قبض يده وامتنع عن العطاء مطمئناً إلى حماية « زقلط » واضطرب السكان إلى ممارسة المهن الحقيرة ، وزاد عددهم فغرقوا في اليأس والشقاء والقذارة ، وعمد الأقوياء إلى الإرهاب والضعفاء إلى التسول والسرقة ما استطاعوا ، والفتوات وحدهم هم المنعمون من مال غيرهم .

يلاحظ أن هذه الحال ، ظلت تتكرر في مصر في عهود كثيرة من عهود تاريخها الدائم التطور فيها ، ويقول مؤلف الرواية :

« وهذه الحال الكثيرة شهدتها بنفسى في أيامنا الأخيرة ، صورة صادقة مما يروى الرواة عن الأزمان الماضية »

وكان « شعراء المقامى لا يقصون على الناس إلا عهود البطولات متجنّبين الجهر بما يجرح مراكز السادة ، ويتغنّون بمزايا الناظر والفتوات ، يتغنّون بعدل لانحطى به ورحمة لانجدها ، وشهامة لانلقاها ، وزهد لانراه ، ونزاهة لانسمع عنها » .

كتب نجيب محفوظ هذه العبارات في الستينات ، وبان فيها - كما نعرف من رمزياته - تعريضه بما كان في ذلك الوقت - كل هذا والذين يسمعون أخبار مصر في الخارج يحسبوننها ممتعة بسعادة ليست لديهم ، لهذا يقول الكاتب :

« والأدهى الأمر أننا محسودون ، يقول أهالى الحواري حولنا : يالها من حارة سعيدة ... ونحن لا ننال من الوقف إلا الحشرات ، ومن قوات فتواتنا إلا الإهانات والأذى ، وعلى ذلك كله نحن باقون ، وعلى لهم صابرون ، نتطلع إلى مستقبل لا ندرى متى يجيء »

وليست الرمزية في هذا الكلام خيفة ، حكام المحافظات أو المديریات ظالمون وتحت إمرة كل واحد منهم حكام أدنى ، وكلهم يتالون من الناس ولا يرحمون أحدا.

كان آل حمدان يقيمون في قمة الحارة ، فيما يلي بيتي الأفندي وزقلط ، وكان رئيسهم حمدان صاحب قهوة ، أجمل قهوة في الحارة ، وكان بها الشاعر يبدأ أنشودته بتحية حمدان وزقلط والثناء على الناظر العادل الكريم ، ويتحدث عن حياة الجبلأوى قبل أن يولد أدهم والسامعون يعرفون أن هذا الثناء زور وتلفيق فيثير الحديث في نفوسهم لوعة ويحفزهم حفزا للمطالبة بحقوقهم المنكور ورزقهم المنهوب مما حملهم على تحريض حمدان على قيادة ثورة على الناظر كى يرد إليهم حقوقهم أو شيئا منها ، واستجاب القوم لهذا الرأي فذهبوا إلى الناظر محتجين وعلى رأسهم حمدان وفتوات آل حمدان ، ولدى الباب أراد بواب البيت الكبير أن يصددهم ، ولكنهم دخلوا ، ولم يأذن لهم الناظر بالجلوس ولكنه وقف على السلم يسألهم عن سبب مجيئهم إليه ، وبذل حمدان جهدا في تملقه والتلطف إليه ، وشكا الجميع حالهم من الجوع والبؤس ولكن الناظر انتهرهم وقال : « هذا وقف أبى وجدى ما لكم به صلة ، إنكم تتناقلون الحكايات الخرافية وتصدقونها ، ولم يجد الحوار معه فتركهم ودخل بيته ولكنه كان مصفرا الوجه حزرا من هذه الثورة .

جلس الأفندي وزوجته يتبادلان الرأي إزاء هذه الكارثة ، فاقترحت الهائم أن يسلط الأفندي عليهم زقلط ، ولكنه تخوف جبل فهو من آل حمدان وهو قوى متين ، وطمانته زوجته بأنه تربي في بيتهم ولن يخرج عليهم ، وجيء بزقلط فأسرف في توعده وما سيلقاه بنو حمدان منه ، وعاد جبل من عمله فسمع وعيد زقلط وسبه آل حمدان فلم يرض هذه الإهانة لهم ، وكان حوار بينه وبين الناظر وزوجته ، فأكد لهما أنه لا ينسى فضلهما ولكنه لا يتبرا من قومه ولا يرضى بما

يعانونه ، وذهب جبل لتصفية حساب ما جمع من الوقف ، وذهب  
جعلص إلى قهوة حمدان فحطم أدواتها وفوانيسها ، والفتوات  
الآخرون وحمدان نفسه يتلفون إليه ، وتفرق الناس من المقهى ،  
وهدد زقلاط آل حمدان جميعا وأمرهم ألا يغادروا بيوتهم ولم يسعهم  
إلا الطاعة . -

نال جبلا حزن عميق لقومه ولأمة حتى النساء اتهمنه بالخيانة ،  
فجلس مفكرا حزينا وقطع عليه تفكيره أحد الفتوات العتاة يطارد أحد  
بني حمدان المعروفين حتى قبض عليه وأوشك أن يقتله والرجل  
يستغيث بجبل ، وحاول جبل أن يسكن الرجل ولكنه لم يأبه به  
فضربه جبل ضربة أفقدته الحياة .

### جاءت هذه القصة في الإصحاح الثاني من سفر الخروج :

« وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى اخوته لينظر في  
أثقالهم ، فرأى رجلا مصريا يضرب رجلا عبرانيا من اخوته ، فالتفت  
إلى هنا وهناك ورأى أنه ليس أحد ، فقتل المصري وطمره في الرمل ، ثم  
خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان ، فقال للمذنب :  
لماذا تضرب صاحبك ، فقال : من جعلك رئيسا وقاضيا علينا ؟ امفكر  
أنت بقتلي كما قتلت المصري ، فخاف موسى وقال حقا قد عرف الأمر  
، فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى ، فهرب موسى من  
وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البئر »

### وجاء في القرآن الكريم في سورة القصص :

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان ،  
هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي  
من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه  
عدو مضل مبين.... فأصبح في المدينة خائفا يترقب ، فإذا الذي  
استنصره بالأمس يستصرخه ( يستغيثه ) قال له موسى : إنك لغوى

ميتين ، فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأترون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ، فخرج منها خائفا يترقب ... »

وجاءت فى سور أخرى إشارات إلى هذا الحادث وإلى خوف موسى « قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون » وجاء قول فرعون له : « ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين .. »

ورواية التوراة تختلف بعض الاختلاف عن قصة القرآن مع اتحادهما فى وصف الحادث وخوف موسى وندمه ، ولم يفت المؤلف أن يشير إلى خوف موسى وأسفه وأنه لم يكن يريد قتل المصرى .

وفى الحديث عن المعركة الثانية تبع المؤلف قصة سفر الخروج فى أن المتخاصمين كانا عبرانيين .

وقد أثرت قصة القتل وهو فتوة من أتباع جلعص أمام الأفندى الناظر ورجته وجبل جالس معهما فلم يسعه إلا الدفاع عن آل حمدان ، ولكنه لم يذكر أنه قاتل الفتوة المصرى ، وانتهى الحوار بين الناظر وزوجته بأنه أثر أن يترك منزلهما ، وخرج واتجه إلى ربيع حمدان حيث حدثت المشاجرة الثانية ، ورأى جبل أنه لا قرار له فى مصر فصمم على الهرب .

أدار المؤلف هذا الحوار فى الموقفين بفطنة تدرك ما يدور فى أعماق النفوس فى مثل هذا الموقف ، وقد كان جبل فى حوارهِ مهذباً يذكر دائماً أنه لا ينسى فضل هذا البيت عليه ، وبما سألهُ الناظر : أمعه هو أم مع آل حمدان ، قال : لا أستطيع أن أقف ضدكم ، ولكنى لا أحمل أن أرى إهانة قومى وأنا فى هذا النعيم عندكم .

وانتهى الحوار - كما رأينا بخروجه من البيت الكبير ذى الحديقة  
الواسعة النفاحة وانضم إلى آل حمدان على ما هم فيه من شقاء وما  
يعانون من المحاصرة وعدم القدرة على الخروج من بيوتهم .  
وبهذا انتهت هذه المرحلة من حياة موسى في مصر وخرج منها إلى  
مدين .

جاء في سفر الخروج : « وكان لكاهن مديان سبع بنات ، فأتين  
واستقين وملأن الجرار ليسقين غنم أبيهن ، فأتى الرعاة وطردهن ،  
فنهض موسى وأنجدهن وسقى غنمهن ، فلما أتين إلى رعوئيل أبيهن  
قال : ما بالكن أسرعتن في المجيء اليوم ، فقلن رجل مصرى أنقذنا من  
أيدي الرعاة وإنه استقى لنا أيضا وسقى الغنم »  
ورعوئيل هو يثرون وهو شعيب .

وتمضى القصة فتذكر أن موسى تزوج « صقورة » بنت رعوئيل ،  
ومكث عنده حتى مات فرعون ، ولكن اشتدت العبودية على بني  
اسرائيل في مصر ، وسمع الله أنينهم ، وكان لموسى ولد سماه  
جرشوم .

وجاء في القرآن الكريم :

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسيقون ، ووجد من  
دونهما امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقى حتى يصدر  
الرعاة وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما  
أنزلت إلى من خير فقير ، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت  
إن أبى يذعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ... »

« قال إنى أريد أن أتكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرنى ثمانى  
حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك ... »

وشعيب نبي ذكرت قصته في القرآن في غير آية وغير سورة ، وليس  
كاهنا ولم يذكر القرآن له سبع بنات ولا ذكر أسماء البناتين .



ولم يشأ صاحب القصة أن يخرج بجبل إلى جهة بعيدة نائية ولكنه جعله يتسلل ليلاً حتى خرج من الحارة ، ثم أوغل في الصحراء حتى وصل سوق المقطم ثم أوى إلى كوخ هناك ليستريح ، وكانت هناك حنفية ماء عمومية ، يملأ الشخص منها إناءه لقاء مليم واحد ، واشتد الزحام حولها وعلا الصياح ، وندت صرخات رقيقة حادة من فتاتين لم يستطعيا ملء أنيتهما فتراجعا من غير ماء ، وذهب إليهما وأخذ يسألهما عن سبب خروجهما بلا ماء ، وكانت إحداهما فاتنة الجمال مست شغاف قلبه ، ولم يقبلأ حديثه بآدى ذى بدء ولكنهما أخبرتا به حال أبيهما ، فزاحم وملاً لهما أنيتهما ، وأثناء ذلك قدم أبوهما ، وهو كاهن معروف ورجل يحترمه الناس اسمه « البلقيطى » - فشكر لجبل حسن مروتته ، وعرفه بنفسه أنه حاو ، وكان جبل قد سمع بهذا الاسم فسر بقاء الكاهن الحاوى وقص عليه قصته ، فإذا هو أيضاً يعرف الجبالوى وجعلص : ثم اصطحب إلى بيته وفيه حجرة مليئة بالأفاعى ، وهو بيت ريفى متواضع فيه أدواته التى يستعملها في مهنته ، وأغزى جبل أن يتعلم أعمال الحواة ويكون حاوياً .

البلقيطى داهية ماكر يكتشف ما تخفى الصدور من السرائر ، وقد ألم بكل ما دار في رأس جبل من الأفكار ، واطمأن إليه جبل فقص عليه قصته ، فقال له : هم قوم ظالمون وأنت رجل شهم ، وتبين أن البلقيطى ينتسب إلى حارة الجبالوى ومن حى حمدان ، وفر من الحارة منذ صغره ضيقاً بفتواتها .

وتزوج جبل من بنت « البلقيطى » ، وجد في تعلم أعمال الحواة فبرع في هذا العمل حتى أدهش البلقيطى ، واستأنس الثعابين والحيات فكان يعرض أعماله أمام الصبية فيستهوهم وينال الأجر الكثير على عمله . ومرة فوجيء بأحد فتوات بنى حمدان وهو يعرفه وكان يخشى أن يتم عليه ، ولكن الرجل أخبره أن الحال قد تغيرت ، ولكن آل حمدان يعانون مجاعة وهواناً وإهانة .

لم يجعل المؤلف جبل راعيًا ، ولم يذهب به إلى مدين ، والحوار الشائق الذى أداره بين جبل والبلقيطى يأخذ بمجامع القلوب ، وقد جعله لا ينسى رفاقه بنى حمدان حتى وهو نفسه آمن مستريح ، كما كان يذكّرهم وهو فى البيت الكبير عند الناظر وزوجته .

وبطبيعة الموقف طوى المؤلف حديث خروج جبل بأهله وإيناس نارا من العليقة ونداء ربه إليه أن يذهب إلى فرعون ، استعاض عن ذلك كله بوجود الصديق الذى ظهر فجأة وأخبره بكل شىء فى حارة الجبلالوى ، ومن هنا صح عزيمتهما معا على العودة إلى حى بنى حمدان وانصرف الزائر وعاد جبل إلى بيته .

بعد شهر أو نحوه ذهب جبل مع زوجه إلى حى بنى حمدان ، ذهباً إليه ليلا ، وطرقا بيت حمدان فدهش برؤية جبل ، وعلم الناس بمقدمه فجاء الكثيرون للقاءه وكثرت الأسئلة حوله وعن سبب عودته ، ولكنه فاجأ الجميع بشىء عجيب هو أنه فى الظلام القاتم تقابله الجبلالوى وقال له : عد لقومك واطالبوا بحقيكم من الوقف .

ومقابلة الجبلالوى حدث استعاض به المؤلف عن رؤية موسى النار فى جانب الطور وأمر ربه له أن يعود لينقذ قومه : « إذهب إلى فرعون إنه طغى » .

وقد قابل جبل الناظر وزوجته وجرى بينهما حوار مؤدب لا يخلو من شدة ولكن جيل أصر على المطالبة بخلاص قومه واعطائهم حقهم فى الوقف .

كان مع جبل جرابه الملىء بالأفاعى ، وأطلع قومه عليها وأراهم كيف يعاملها ويديرها ، وظهرت فى الحى ثعبانين نهش واحد منها ابن زقلط فمات ، وظهر فى بيت الناظر ثعبان كبير أزعج كل من فى البيت ، واستدعوا « جبل » فأخرج ثعبانين وضمهما إلى ما فى جرابه ، وقال له الفتوات : إن فى الحارة أفاعى كثيرة وإنهم يؤدون أن يطهرها من

الأفاعى ، فقال: ذلك عمل سهل ولكن لايد له من ثمن ، والتمن هو إطلاق سراح بنى حمدان واعطاؤهم حقهم فى الوقف .

وجمع الناظر الفتوات فرأوا أن الموقف حرج جدا ، وأن بنى حمدان إذا أخذوا حقهم فى الوقف فسيطالب الآخرون أيضا بحقوقهم ، وأخيرا استقر رأيهم على إبادة بنى حمدان .

لجأ جبل وقومه إلى حيلة ناجحة ، فحفروا فى دهليز الربيع حفرة غطوها بغطاء واهن وواروها بالرمال ، وجاء الفتوة الكبير ومعه قناتوه الآخرون فهددوا سكان الربيع ولكنهم ما كادوا يخطون إلى الداخل حتى انهار بهم غطاء الحفرة وسقطوا فيها ، فانهالت عليهم النبابيت والأحجار ، ومات الفتوة الجبار الذى كان الناظر يتخذة سنداً وأداة له .

ذهب آل حمدان ومن انضم إليهم من كانوا يخافون الفتوة الكبير إلى بيت الناظر وهم يهتفون بحياته ، ولكن لما جاء جبل أمرهم بالانصراف ودخل هو ليقابل الناظر ، وطلب منه حق آل حمدان فى الوقف ، ولم يسمع الناظر المرتجف الخائف إلا الموافقة ، وظفر آل حمدان بوقفهم وجاء الآخرون يطلبون من جبل حقهم أيضا ، فلم يصنع لمطلبهم .

لم يشأ جبل أن يكون فتوة الحارة ، ولم يشأ أن يستأثر بشيء لنفسه فوق ما أخذ الآخرون ، وأجرى العدل بينهم فى كل شيء ، حتى فى القصاص وباتت الحارة فى أمان .

ماذا يقصد المؤلف بهذا الموقف كله ؟

هى قصة موسى وفرعون ، وظلم فرعون وانتصار موسى ، ولكن « جبل » هنا لم يخرج ببنى حمدان من مصر كما خرج موسى ببنى إسرائيل ، ولم يفارق حمدان ولا فارقت « جبل » ولا أحد من الجماعة كلها فارقتة أنانية حرصه على التعالى وازدراء الآخرين حتى وهم فى

أيام محتتهم ، ولعل المؤلف أراد بهذا تصوير التعالي اليهودي ، واستشعار اليهود دائما أنهم الشعب المختار ، ولهذا كان « الجبلأوى » بجانبهم ونصيرا لهم ، والناس جميعا عيال الله وخلقه ، ولكن اليهود هم الذين اختارهم الله ووعدهم بامتلاك أرض واسعة ، هذا زعمهم ، وقد تردد في القصة أن أبناء الحارة جميعا لهم أوقاف مخصصة ولكن « جبل » بعد انتصاره قال لهم : إن الجبلأوى أوصاه بقومه فقط .

هذه حقا هي أنانية اليهود وحرصهم على العمل لأنفسهم ، دون غيرهم ، فهم يستفيدون من الناس ولا يفيدونهم ، ولهم تدبيرهم الخفى وحسن التآنى لمواجهة الأحداث ، ولذا يقول جبل : إن الجبلأوى أوصاه بقومه فقط ، فهذه إحدى رمزيات المؤلف .

## رفاعة

رفاعة هذا هو الشخصية التي اختارها المؤلف لتكون رمزا للمسيح عليه السلام ، والمسيح لم يولد في اورشليم ولا الناصرة ، ولكنه ولد في بيت لحم ، إذ كان القيصر أمر بإجراء تعداد للسكان وكل واحد يسجل في البلد الذي ولد فيه ، فاضطرت السيدة مريم ويوسف النجار خطيبها ومن معهما أن يذهبوا إلى بيت لحم حيث جاءها المخاض هناك وولدت يسوع .

وحرصا على الإشارة لولادته بعيدا عن البلد الذي كانت تقيم فيه مريم ويوسف النجار ، جعل المؤلف الشخص الذي أطلق عليه اسم الشافعي يخرج هو وامراته مضطهدين إلى سوق المقطم ، ولتمصير القصة وإلباسها ثوبا شعبيا لم يتقيد الكاتب بالنصوص الدينية ، ففي الاناجيل وفي القرآن أيضا أن المسيح ليس له أب بشرى ، وأن الله نفخ في جوف مريم هذا المولود ، وقد كانت مريم في كفالة زكريا زوج خالتها وخطيبها نجار يدعى يوسف ، وكانت له قبلها زوجة ماتت وله منها أولاد ، وظهرت على مريم أعراض الحمل قبل أن يعرس بها خطيبها فقال اليهود : إنه تعجل قطف الثمرة قبل نضجها ، وظل يوسف مرافقا لها وعنى بها وبالمسيح حتى نهايته .

عندما أعلن المسيح رسالته كانت مساوئ اليهود وسيو  
تصرفاتهم فاشية في وسطهم ، وكانت فرقهم العديدة من الفريسيين  
والصدوقيين والآسيين والشيوخ والكتبة .. كلهم — مع ما درسوا  
وعلموا — يعبدون المادة ولا يعنيه شيء مثل ما يعنيههم جمع المال ،  
وهم مع مفاسدهم يعييون الآخرين ، وكان المسيح يهيب بهم :  
« يا أولاد الأفاعي ترون القذاة في عين الناس ولا ترون الخشبة في  
أعينكم » .

وقد استعاض المؤلف عن هؤلاء بالفتوات الذين بسطوا سلطانهم  
على الحارة وخافهم أهلها ، وهم في قرارة أنفسهم غير راضين عنهم .  
ودعنا من قبل حديث جبل الذي يقابل شخصية موسى عليه  
السلام ، وموسى جاء بالتوراة والوصايا العشر ، وتتابع من بعده  
الرسول لهداية بني إسرائيل ، لكن شريعة موسى بدلت واندثرت ،  
وظهرت جماعات تنتسب إليها ولا تعمل بشيء منها ، ولذلك لما ظهر  
رفاعة كانت الحارة قد تغيرت ، وذهب فتواتها وظهر آخرون ، وتغير  
الناظر وأعوانه — أما الجبلاوى — فظل رابضا في قصره أو على الأصح  
في حجرته ، والناس يترقبون كلمة منه تصلح حالهم وترد للمظلومين  
حقوقهم ، ونجد لمحات الظلم في مثل هذا التعبير الذي جاء في كلام  
الشافعى :

ما أجمل الحياة لولا وجود زئفل ( الفتوة ) الحياة عامرة بالخيرات  
والهواء النقى والسماء المرصعة بالنجوم والمشاعر الطيبة ، ولكن  
فيها أيضا ناظر الوقف والفتوات ... وفي الإمكان أن يصير كل ربح  
كالبيت الكبير ، وأن ينقلب الأثين الحانا ولكن المساكين يتمنون المحال  
كما تمناه أدهم ( آدم ) من قبل ، ومن هم المساكين ؟ إنهم أقفيتة  
متورمة من الصقع ، وأديار ملتهبة من البركل ، وأعين يرهاها الذباب ،  
ورؤوس يعيش فيها القمل . أين الجبلاوى ؟

افترض المؤلف أن « الشافعى » غاب عن الحارة عشرين عاما ، ذلك ليهيئ لرفاعة عمرا يستطيع فيه أن يعظ ويرشد ويعلم .

كانت رسالة المسيح هي الدعوة إلى اتباع تعاليم التوراة ، ولكنها تركزت على تطهير النفوس من الأحقاد وإشاعة المحبة بين الناس ، وعمل الخير للجميع ، والرواية تشير إلى ذلك في غير موضع من محاوراتها .

كان كهنة اليهود قد أغلقوا باب التوبة ، وكانت الزانيات يرغبن في التوبة فلا يجدن في رأى الكهان لها قبولا ، لكن المسيح فتح بابها لهن ، وقال : إذا لم يغسل المذنبون في النهر فأين يغتسلون ، وأهاب بمن حوله : أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم سامحوا من أساء إليكم ، وجاءوه مرة بامرأة زانية يريدون رجمها ، فقال : تريثوا قليلا اغمضوا أعينكم من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر ، وإلا فلينصرف . وبعد دقائق لم يبق في الموقف غيره وغير المرأة ، قال : اذن انصرفي .

ولعل شخصية ياسمينة التى اخترعها المؤلف تشير إلى ذلك ، فقد جاءوا بها يريدون قتلها لأنها كانت في بيت أحد الفتوات المنحرفين ، ولكن رفاعة قال لهم : أنا أتزوجها ، وتزوجها فعلا ونجت من القتل ، ولكن مريم النامطية الزانية أكبت على أقدام المسيح تقبلها وظلت محبة له ، أما ياسمينة فظلت على علاقتها بعشيقها ثم أخيرا وشت برفاعه .

لم يتقيد المؤلف بسيرة المسيح كما جاءت في الإنجيل لأنه يريد قصته أن تكون ذات طابع شعبى ، فيه المقامى والصور ، وفيه الاكاذيب والخداع وأكل أموال الآخرين بغير حق .. وفيه .. وفيه ، وقد كان المجتمع اليهودى في عهد السيد المسيح يموج بكل هذه الحرمات .

افتتح الشافعى — والد رفاعة — دكان تجارة ، وبدت بوادر الربح تهبط عليه ، ولكن ابنه لم يقبل أن يعيش معه في هذا العمل ، وجنح إلى

الدمعة لإشاعة الحب والسلام، كان أهل الربع وأهل الحارة لا يشغلهم الحديث عن الوقف وحققهم فيه الذي سلبه الناظر وفتواته كما كان الحال في عهد جبل، ولكن جبل انتصر أخيراً، ولم يخلف انتصاره على قومه سعادة طويلة المدى، ورفاعة لا يعنيه الوقف ولا الحصول على مال وكل ما يعنيه هو إثارة الحب والسلام. ولكن «كيف يتسنى للحب والسلام أن يعيشا بين الفقر ونبايت الفتوات، هذا ما كان يجيب به الناس حين يدعوهن لمذهبه.

ولعله لشيوع الظلم الرومانى وثقل الضرائب وضيق الناس بهذا الحكم كثر فيهم المفلوجون والمرضى والصرعى، وكثر فيهم لذلك الروحانيون ومن يحترفون علاج الشياطين وإخراج العفاريث من الأجسام، وللمسيح في هذا مواقف كثيرة تذكرها الأناجيل، وأورد المؤلف شخصية «أم بخاطرها» تخلص المسوسين من عفاريثهم ولديها جميع ما يحبون من بخور سودانى وتعاويز حبشية وأغان سلطانية، وتقول: لكل إنسان عفريت هو سيده، ولكن ليس كل عفريت في إنسان يجب أن يخرج.

واستهوت رفاعة أحاديث هذه السيدة، ورأى على جدار المقهى صورة للجبلاوى ضخمة تبدو البيوت بجانبها كعلب الكبريت، فتعلق بها قلبه، وسأل هل من رآه؟ لم يره أحد. وهذه صورة خيالية صورها مصورها حسبما سمع من الناس، ولكن «جبل» قال: إنه قابله في الظلام وسمع كلامه ولم يتبين ملامحه ولم ير شخصه، وظل رفاعة متعلقاً بهذه الشخصية ورغب عن كل شيء من المتع المادية، حتى أن فتوة الحارة اللصيق بناظر الوقف رغب أن يزوجه ابنته الحسناء الفاتنة فلم يسترح لهذا العرض، وكانت أمه تغريه بالزواج منها ولكنه أعرض كل الاعراض، وعجب أبوه لهذا المذهب منه، ولكن هذا الذى حدث.

تغيب رفاعة عن محل أبيه وبيته مدة حتى شغلهم القلق لغيبابه،



وتحدث به الناس ، وذهب كل واحد يلتمس سببا ويفترض مكانا تغيب فيه ، وفي الأناجيل أنه أوصد إلى البرية وصام أربعين يوما ، وهو لما سمع أن يوحنا المعمدان قبض عليه انصرف إلى الجليل وترك الناصرة وسكن في كفر ناحوم ، فذكر المؤلف هذا الغياب يشير إلى ذلك وجاء في كلام رفاعه : « ضقت بحياتي فذهبت إلى الخلاء ، شعرت برغبة في الوحدة والخلاء ، ولم أكن أتركه إلا لشراء الطعام »

وكانت الخلوة في البرية أو على رؤوس الجبال عادة الأنبياء من بني اسرائيل .

وعن بداية الوحي للمسيح وتلقيه الأمر بدعوته جاء في الرواية على لسان رفاعه :

« أمس عقب خروجي من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة في الانطلاق فقصدت الخلاء ، مشيت في الظلام حتى تعبت ، ثم اخترت مكانا أسفل سور البيت الكبير المشرف على الخلاء فجلست مسندا ظهري إلى السور ، سمعت صوتا غريبا يتكلم ، كأنما كان يحدث نفسه في الظلام ، فدهمني شعور مشرق بأنه صوت جدنا الجبلأوى ، وقد قمت عند استماعي الصوت فاستدرت نحو البيت ، وتراجعت إلى السوراء لأتمكن من رؤيته ، ولكني لم أر إلا ظلاما ، سمعت الصوت وهو يقول : « أما جبل فقد قام بمهمته ، وكان عند حسن الظن به ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليه . »

« هتفت قائلا : يا جدي جبل مات ، وخلفه آخرون ، فمد إلينا يدك - »

جدي سمعني ، وجاءني صوته قائلا : « ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعمل والابن الحبيب من يعمل » فسألته : وما حيلتي حيال أولئك الفتوات ، أنا الضعيف « فأجابني : « الضعيف هو الغبي للذي لا يعرف سر قوته ، وأنا لا أحب الأغبياء »

« وأعرف الآن ما يراد منى ، نعم إننى ضعيف ولكن لست غيباً ،  
والابن الحبيب من يعمل ! »

وحزن الوالد لهذا الكلام إشفاقاً على ولده ولكنه طمأنه بأنهم لا  
يقتلون إلا من يتطلع إلى الوقف وهو لا يتطلع إليه .

وقال لوالده : إن الذين قبله طالبوا بالوقف ليظفروا بحياة رغبة  
هادئة ولكن مادام الحصول عليها ميسوراً بغير الوقف فما أخص  
الوقف .

ويدور هنا حوار وتطفو في ذهن الرجل وأيضاً في ذهن زوجته  
خواطر وكلها تصور العراك بين طلب الحياة المادية ونشدان الحياة  
الروحية والمعنويات .

وقرر رفاعه أنه لن يكون مثل «أم بخاطرهما» تنتظر الأغنياء  
ليحضروا إليها وتتال من ماله ، أما هو فقرر الذهاب إلى المرضى في  
بيوتهم وهو لا يقبل على عمله أجراً ، وانقطع عن دكان أبيه وعن العمل  
فيه وعن أى عمل سوى آل جبل ودعوتهم لهم ليخرج العفاريت من  
أجسامهم .

يبدو أن العفاريت في هذه الرواية رمز للأحقاد الدفينة في النفوس  
والترامى على المادة ومراعاة الناس ، فقد كانت دعوة المسيح مركزة  
على تطهير النفوس ومحاربة الرياء ، وإخلاص الأعمال لله ، وكان  
يقول لتلاميذه : « احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم أمام الناس لكي  
ينظروكم ، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السماوات ، فمتى  
صنعت صدقة فلا تصوت أمامك بالبوق كما يفعل المراءون فى  
المجامع والأزقة لكي يمجدوا من الناس . »

ومن جانب آخر كان يحارب الشياطين ، ففى انجيل لوقا أنه  
استقبله رجل من المدينة كان فيه شياطين منذ زمن طويل ، وكان  
لايلبس ولا يقيم إلا فى القبور ولما رأى يسوع صرخ وخر له وقال

بصوت عظيم : مالى أطلب منك ألا تعذبني ، لانه أمر الروح النجس أن يخرج من الانسان .

وفي موضع آخر : أن رجلا شكأ إليه أن ابنه الوحيد تقمصه روح فيصرخ بغتة ويصرخ مزيدا ... وقدم الابن إليه وبينما هو أت مزقه الشيطان وصرعه ، فانتهر يسوع الروح النجس وشفى الصبى .

فالرمزية قد تشمل الأمرين ، ولكننا نجد رفاة هذا يعترض الأصحاء ويعرض عليهم أن يطهرهم من العفاريت الشريرة التي بهم ، حتى «أم بخاطرها» التي هى كربة زار وتعمل على إخراج الشياطين من الناس يميل عليها رفاة في رفق ويقول لها : « هلا سمحت لى بأن أطهرك أنت مصدر خير وبركة ولكنك لا تخلين من طمع يحملك على الاتجار بالمرضى ، ولو تخلصت من سيدك لوهبت الخير بلا ثمن » .

وكان يقول : « إن جدنا يود لنا السعادة» ورد ذلك ضمن أقواله لجبل وذلك إشارة لما كان يدعو له المسيح قومه إلى اتباع التوراة التي تلقاها موسى .

ويورد المؤلف قصة المرأة التي دعتة لشفاء ابنها المسوس واستجابته لها ، وهى بنفسها القصة المذكورة فى الأناجيل ، ويقول لزوجته : « ستكونين أفضل وأجمل عندما تقهرين الغرور ، ليس آل جبل بخير الناس فى حارتنا ، خير الناس أطيبهم » وقد كان المسيح - عليه السلام - يقول لأتباعه : لا تقولوا إننا ذرية إبراهيم ، إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أبناء لابراهيم .

ويقول لزوجته : «كنت مخطئا مثلك ، فخصصت آل جبل باهتمامى ، ولكن السعادة لا يستحقها إلا من ينشدها مخلصا ، انظروا إلى الطيبين كيف يقبلون على وكيف يبرأون من العفاريت »

وهذا ناظر إلى أمر المسيح لأتباعه أن يبشروا ويدعوا الخراف الضالة من بنى اسرائيل ، ولما لم يستجب الاسرائيليون أمرهم أن

يدعوا الناس جميعا ، وضرب مثلا بالرجل الذى أعد طعاما ودعا إليه قوما معينين ولما لم يحضروا أمر بتداء الناس جميعا من كل مكان .

أعرض الاسرائيليون وخصوصا رجال فرقهم الدينية عن دعوة المسيح وناصبوه العداء ، أما الآخرون الذين شفى مرضاهم فأحبوه ، وكانوا يتحدثون به ويعمله . وعرض المؤلف عددا من الذين يرثوا على يديه بأسماء ابتكرها وأمراض عديدة كانوا يشكونها ثم صاروا ببركة عمله أصحاب سعداء وكانوا يقولون له : أنت سر سعادتنا ، سعداء بالرغم من أننا فقراء ضعفاء لاحظ لنا في الوقف ، وهو يقول لهم : لم يستطع جبل أن يغير النفوس بنيله حقه في الوقف ، ولما رحل انقلب الأقوياء مغتصبين والضعفاء حاقدين وأطبق الشقاء على الجميع ، أما أنا فافتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه .

الحق أن المؤلف أحسن تصوير مسلك المسيح ودعوته الروحية لإصلاح القلوب وتطهير النفوس وإعراضه عن المال والمادة ، وكان يقول لتلاميذه : « لا تكتنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ، بل أكتنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون ، لا تقدروا أن تخدموا الله والمال ، لا تهتموا بحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ... »

وهذا هو ما يكرره رفاة عن احتقار الوقف واعراضه عن المطالبة به لآل جبل وأهتمامه بتطهير النفوس وإخراج العفاريات من الأجسام ، حتى لنجد زوجته تقول : إنه لا يعنيه غير إسعاد الفقراء .

جاء في انجيل متى : « وإذ كان يسوع ماشيا عند بحر الجليل أبصر أخوين ، سمعان الذى يقال له بطرس ، واندراوس الذى أخاه يلقيان شبكة في البحر ، فإنهما كانا صيادين ، فقال لهما : هلما ورائى فأجعلكما صيادى ناس ، فلوقت تركا الشباك وتبعاه ، ثم اجتاز من

هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زيدى ويوحنا أخاه في السفينة فدعاهما فلولقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه ،

وفي الرواية أيضا أن رفاعة اختار أربعة ذكر أسماءهم ، ولما قال لهم إننى لأصلح للعمل وحدى وأريدكم أن تعملوا ، فرحوا فأخذ يوصيهم ، وجاء في وصيته : « ... طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى للاتقياء القلب ، لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام ، ... طوبى للمطر ودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات ، طوبى لكم ، إذا عيروكم وطردوكم ، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجل كاذبين ، افرحوا وتهللوا ، لأن أجركم عظيم في السموات ، فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم »

والرواية في غير موقف تبدى إعراض رفاعة عن المال وعن الوقف والدعوة فقط إلى التطهر ، رغم ما كان يقابله ويقابل أتباعه من متاعب .

وأخيرا يأتى الحديث عن نهاية رفاعة ، والكاتب يقرب بها صفة نهاية المسيح ، وكان السيد المسيح في نهاية أيامه مطاردا من الجيش الرومانى ، وكان يسهر الليل يشكو برحاه ووجده ، وينام حواريوه من حوله ، فيقول لهم : أسهر وتنامون ، وكان يذكر لهم أن واحدا منهم سيخونه ويشى به ، وكان الخائن منهم هو يهوذا الاسخريوطى فهو الذى قاد الجنود إليه .

وأشار المؤلف إلى هذا الموقف فجعل ياسمينة زوجته الداعرة التى انقذها هي التى تنشى بأسراره وما اعتزم عليه من الهرب هو وحواريوه ، وتنتهى كل ذلك إلى بيومى كبير الفتوات وأشهدهم جدا ، وبينما كانوا يحاولون الهرب فاجأهم بيومى ، فقبض على رفاعة بيد حديدية ، وانضم إلى بيومى فتوات أخرون ، وانهالوا جميعا ضربا بالنابايت على رفاعة حتى مات ، فحفروا له حفرة ألغوه فيها وهالوا عليه التراب .

ونهاية المسيح في الأناجيل تختلف عن هذا الوصف ولكنه اختلاف غير بعيد ، كل من الوصفين ذكر الظلام ، وجاء في الرواية أن رفاعة هتف باسم الجبلأوى وتمنى لو يخلصه ، وجاء في إنجيل لوقا : وكان نحو الساعة السادسة فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة ، وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه ونادى يسوع بصوت عظيم ، وقال : « يا أبتاه في يديك أستودع روحي ، ولما قال هذا أسلم الروح .. » وهذا يقابله نداء رفاعة : يا جبلأوى .

وقد أسف حواريو المسيح لأنهم أنكروه وتركوه للمهانة والعذاب ، وقالوا : إن هذا كان جينا منهم ، وجاء في الرواية حوار بين أصحابه يتلاومون ، وواحد منهم يقول لرفاقه : يا جبناء ما أنتم إلا جبناء ، لن يرتاح لنا بال حتى نكفر عن جبننا .

قتله خصومه وانصرفوا في الظلام وجاء أصحابه الأربعة فتلمسوا مكانه واهتدوا إلى الحفرة التي دفن فيها ، فأناحوا عنه التراب واستخرجوه فلفوه في ثيابهم ومضوا إلى مقبرة أحدهم فغيبوه فيها ، ورثوه والعبرات تتساقط من أعينهم :

« كانت حياتك حلما قصيرا ، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء ، وما كنا نتصور أن تغادرتنا بهذه السرعة فضلا عن تقتل بيد أحد أبناء حارتنا الجادة التي داويتها واحييتها . لولا حبك الباقي في قلوبنا لمقتنا الناس إلى الأبد » .

وهذا تصوير لما لام به حواريوه أنفسهم . كان فراق رفاعة أشد من الذبح على قلوبهم ، وكان تخليهم عنه معذبا قاتلا ، ثم اختفوا بعيدا عن الحى .

وشاع بعد ذلك نبا قتله وذهب الناس يبحثون عنهم فهدتهم بقع دم إلى المكان الذى قتل فيه وحفروا مدفنه ولكنهم لم يجدوا شيئا .

ونذكر نهاية المسيح كما جاءت في الأناجيل لنرى مدى تصرف المؤلف فيها ، وكيف ألبسها هذا الثوب .

بعد أن علق المسيح على الصليب، جاء رجل اسمه يوسف ... تقدم إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع ، وأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط ... وتبعته نساء كن قد آتين معه من الجليل ونظرن القبر وكيف وضع جسده ، فرجعن وأعددن حنوطا وأطيابا .

ثم في أول الأسبوع أول الفجر آتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعدنه ومعهن أناس فوجدن الحجر مدحرجا عن القبر ، فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع .

وفي انجيل مرقس تصوير آخر فيه :

فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح .

وكانت أيضا نساء يصرخن من بعيد بينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب الصغير ويوسى وسالومة ... وآخر كثرات .

جاء يوسف الذى من الرامة ... فتجاسر ودخل إلى بيلاطس وطلب جسد يسوع ... فاشتري كتانا ، فأنزله وكفنه بالكتان ووضعه في قبر كان منحوتا في صخرة ودرج حجرا على باب القبر ، وكانت مريم المجدلية ، ومريم أم يوسى تنظران أين وضع .

وبعد ما مضى السبت اشترت مريم المجدلية ومريم أم يعقوب وسالومة حنوطا لياثينه ويدهنه ، وباكرا جدا في أول الأسبوع آتين إلى القبر إذ طلعت الشمس .... فتطلعن ورأين أن الحجر قد دحرج .

واختلفت صورة قيامة المسيح من قبره في الأناجيل ولكن المؤلف حرص على أن يذكر أن الذين جاءوا لم يجدوا في القبر أحدا ، وافترض أنه نقل إلى مقبرة لأحد أصحابه .

وبعد نهاية المسيح على الأرض كثرت الاقاويل واختلفت الروايات في مقابلة أصحابه ، والمسيحيون يعتقدون أنه رفع إلى السماء في سحابة أرجوانية وجلس عن يمين أبيه في السماء .

وجاء في القصة : « وتناقلت الحارة قصة رفاعة ... وتنوّل أيضا أن جثته ظلت ملقاة في الخلاء حتى حملها الجبلوى بنفسه فوارها التراب في حديقته الغناء ... » وهذا ما يقابل الرفع إلى السماء .

لم يدع الرومان عداء المسيحيين بعده ، فكان هؤلاء يجتمعون سرا ويتخذون قرارات ، وعانت المسيحية اضطهادات كثيرة ألّيمة ، لكن الدولة أخيرا اضطرت إلى التسليم بالمسيحية وأقرارها ديناً رسمياً للدولة ، ثم أخذت تذيب وتنتشر .

وصور المؤلف هذا الانهزام أمام أتباع رفاعة فقال :

« كانت الأحداث الخطيرة تتلاشى عند ذلك لولا أن اختفى الفتوة حندوسة اختفاء مريباً ، وإذا بجثته .. ذات صباح ملقاة مشوهة أمام بيت الناظر ... »

ومرت بالحارة فترة رهيبة من الرعب ، انصب الاعتداء كالطر على كل من له صلة أو شبهة صلة برفاعة أو أحد من رجاله ، انهالت النبأيت على الرؤوس ، وهزست الأقدام البطون وحفرت اللكمات الصدور ، وألهبت الأيدي الأقفية حتى حبس نفسه في داره من حبس ، وهجر الحارة من هجر وقتل في الخلاء من استهان بالخطر ... ومن عجب أن ذلك كله لم يقض على عمل العاملين .

هذا تصوير لامتداد الدعوة المسيحية واستمرارها رغم الاضطهاد . وتذكر الرواية ظهور أصحاب رفاعة الذين اختفوا وأنهم قاموا بثورة هوجاء فقتلوا الفتوة الأكبر بيومي وفر أعوانه ، واستطار الشر وانقض على من بقى من الفتوات وأعوانهم :

« عند ذلك أرسل الناظر في طلب على فذهب على لمقابلاته ... فهدأت



الأحوال وسكنت الخواطر » وعلى هو أحد الحواريين الأربعة الذين اختارهم رفاعة .

وتمخضت المكافحة عن عهد جديد ... وعاد إلى الحى الجديد جميع المهاجرين الذين قروا من الحارة في فترات الارهاب .

وجدت الدولة الرومانية نفسها أمام دين أخذ في الانتشار وأنه يهدد وحدة الدولة ، فاضطر الامبراطور أن يفرضه دينا للدولة كلها ، وعاقب من لم يتخذه دينا ، وحظى المسيح بتكريم لم يظفر ببعضه في حياته ، وتدارس المسيحيون في كل مكان أنه رفع إلى السماء وأنه حى هناك .

وجاء في الرواية : « وحظى رفاعة في موته بما لم يكن يحلم به في حياته . من التكريم والاجلال والحب حتى صار قصة باهرة يرددها كل لسان ... وبخاصة رفع الجبلاوى لجثته ودفنها في حديقته الغناء ، وقد أجمع الرفاعيون على ذلك » .

وتنوعت اتجاهات المسيحيين في عباداتهم وسلوكهم الدينى ، فهناك الرهبان الذين حرموا على أنفسهم الزواج ووقفوا حياتهم على خدمة الانسانية والبتولة ومساعدة كل من يحتاج إلى مساعدة ، وهناك من رأوا عبادة الله والقربى إليه في السلوك المستقيم والدعوة إلى الرحمة والمحبة ولكنهم تزوجوا .

وجاء في الرواية : « لكنهم اختلفوا فيما عدا ذلك ، فأصر كريم وحسين وزكى على أن رسالة رفاعة يجب أن تقتصر على مداواة المرضى واحتقار الجاه والقوة ... وغالى منهم قوم فتجنبوا الزواج حبا في محاكاته ... أما على فتمسك بكافة حقوقه في الوقف » .

« وعلى أى حال استبشر الناس خيرا واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة »

هذه قصة المسيح عليه السلام وجهاده في سبيل الحق ودعوته إلى المحبة كما طاب لنجيب أن يصورها ، ونحن نختلف معه في كثير من مواقفها خصوصا المواقف التى تتعلق بالجبلاوى .

## قاسم

هذه هي الشخصية التي تمثل نشأة وجهاد نبي الإسلام محمد ﷺ - ولعله ليس من قبيل المصادفة أن اختار هذا الاسم . فكما اختار من قبل أسماء قريبة أو شبيهة بأسماء الذين تحدث عنهم ، فاختار لأدم أدهم ولإبليس ادريس . اختار اسم قاسم - لأبي القاسم محمد ﷺ - والصفات التي ذكرها والأحداث التي أوردها تنطبق عليه ، ولكنه على عادته - حوَّرها أو اخترع لها حدثا مشابها .

وقاسم نشأ يتيما وتربى في كفالة عمه زكريا ، ورسول الله محمد تربى في كفالة عمه أبي طالب ، واشتغل في صباه برعى الغنم ، واشتهر بين قومه بالصدق والأمانة .

وقاسم كان راعى غنم ، كان يجمع الأغنام من أصحابها ويصعد بها في الصحراء ويعود بها آخر النهار ليوزعها على أصحابها ، وكانت هذه هي مورد رزقه ، على أنه يجد لدى عمه طعامه وماواه .

أضفى المؤلف على مواقفه كلها صبغة شعبية ، وجعل أهل الحارة على ما كانوا عليه ضعافا فقراء يخضعون لسلطة جماعة من الفتوات يلقون عليهم أوامرهم ويشاركونهم أرزاقهم أو يفتصبونها كلها ،

وأهل الحارة جميعاً لهم نصيب من وقف الجبلالوى ، ولكنهم لا يصلون إليه أو لا يصل إليهم ، والجبلالوى معتكف في حجرته في قصره ويموت نظاره ، فيعين بدل الناظر الذى يموت ناظراً غيره ، وهو لا صلة له بال جماهير ولا يستطيع أحد أن يقابله ، ولكن إلى يمين البيت الكبير بيت الناظر ، ويقابله بيت الفتوة الذى يستعين به الناظر ويسلطه على الناس .

وفيما بعد البيت تتميز ثلاثة أحياء ، حى جبل الذى حل محل ربوع حمدان ، ثم حى رفاعه فى وسط الحارة ، ثم يأتى بعده بمسافة حى الفقراء جدا الذين لاصفة لهم ولا نسب ، ويسمون « الجرابيع » ولكل حى فيها جميعاً فتوة ، وسهرات المقاهى لاتزال كما هى ، وشاعر المقهى يتحدث عن أدهم وإدريس وهمام وقدرى ..... والناس يستمعون ويشربون ، ولكن حى جبل معتز بنفسه مباء بقرابته من الواقع ، ويرى أنه خير حى ، والمؤلف يشير بهذا إلى ما يعتد به الاسرائيليون أنهم شعب الله المختار « ولذلك قل أن أحبهم أحد » .

وحتى الجرابيع كان لهم فتوة واستقرت الأوضاع على ذلك ، وحملة النبائيت الفتوات يؤكدون للناس أنهم يجرون على تعاليم ووصايا الواقع العشر ، والشعراء يمجدونهم ويكررون الثناء عليهم .

وأورد المؤلف بضعة أحداث بعيدة عن حياة النبى محمد ونشأته ربما ليبرر عمله ويوهم أنه يقصد فقط مجرد شاب فى الحارة ، ولكن مهما ذكر فرمزياته واضحة قريبة . من ذلك أن «قاسم» هذا دخل حديقة البيت الكبير واستحم فى فسقيتها ثم انتهره الناظر وطارده البواب .

وشب قاسم وقال لـ عمه : اعمل معك ، فقبل . ففرح ومضى أمام عربته - وهو بائع بطاطا - ينادى عليها ، ويبدو أن هذه الحادثة فى مقابلة رحلة النبى ﷺ مع عمه إلى الشام فى تجارة .

وقد قابل العم وابن أخيه رجلا عجوزا فَرَحِبَ بهما والبس قاسما حجابا، ولعل هذا أيضاً في مقابلة بحيرا الراهب وتنبئه بأمر محمد ﷺ وكان لا يزال طفلاً أنه سيكون نبيا ويكون له شأن عظيم .

وجاء في كتب السيرة أن رسول الله ﷺ صَبَّ بعمه أبو طالب - تعلق به - وهو متهيئ للرحيل إلى الشام ، وكان عمره تسعة أعوام في بعض الروايات واثنى عشرة سنة في أشهر الروايات . فامسك بناقة عمه ، وقال ياعم : إلى من تكلني ؟

فَرَّقَ له عمه واصطحبه معه وأردفه خلفه ، ومر ركبهم بصاحب دير قريب من بصرى ، وكانوا يمرون به من قبل فلا يعبا بهم ولا يخاطبهم ، ولكنه في هذه المرة استضافهم وعمل لهم وليمة وطلب أن يحضروا جميعا . أحرارهم ومواليهم ، سادتهم وأتباع سادتهم ، كبارهم وصغارهم ، فقال له رجل منهم لصاحب الدير ، وهو بحيرا الراهب : إن لك اليوم شأنا ، ما كنت تصنع هذا بنا ، وكنا نمر عليك كثيرا .. واجتمعوا لديه كلهم وتخلف رسول الله ﷺ من بين القوم لحداثة سنه ، ونظر بحيرا في القوم فلم ير فيهم أحدا له الصفة التي يريدونها ، فسألهم : هل تخلف منهم أحد ؟ . فقالوا ما تخلف أحد إلا غلاما هو أحدث القوم سنا ، فقال : لا ، لاتفعلوا ، ادعوه فليحضر ، وأحضره عمه الحارث بن عبد المطلب ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه ، وبعد الطعام أخذ يسأله عن أشياء من حاله ورسول الله ﷺ يجيبه ، ثم أخذ يسأل عمه أبا طالب عنه ، ثم قال له : ارجع بابن أخيك إلى بلاده واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لبيغته شرا ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم ... فهذا يقابله إلباس يحيى له الحجاب ووصيته له بالمحافظة عليه .

أما دخول قاسم حديقة البيت الكبير وتمتعه بشذاها ومائها ، فلا مغزى لها بعد في القصة ، وربما كانت إشارة إلى رحلة المعراج لولا أنه ذكر هنا أن البواب والناظر طرداه ، ولكن من ناحية أخرى قد تكون

هذه المطاردة وهذا الانتهاز في مقابلة تكذيب القرشيين رحلة الإسراء والمعراج .

وتحول قاسم من بائع بطاطا إلى راعى غنم ، وكان بين الأغنام التي يرعاها نعجة لسيدة في حي الجرائيع تدعى « قمر » وهى السيدة الوحيدة التى تملك مالا فى هذا الحي الفقير . وقالت له مرة : إن نعجتها تسمن وتمتلئ بفضل رعايته الحسنة لها . ثم مالت نفسها إليه فأرسلت خادمتها إليه تعرض عليه الزواج من قمر ، واستغرب عمه وزوج عمه هذه الفكرة لثراء قمر وفقر قاسم .

الرمزية هنا قريبة جدا .. فالسيدة خديجة استأجرت محمدا ﷺ ليرعى تجارتها الذاهبة إلى الشام فربحت ربعا كثيرا وأعجبت هى بأمانته فمالت إلى الزواج منه ، ونمو النعجة هو ربح التجارة ، وقد أرسلت فعلا إلى النبی تطلب الزواج .

كان لقاسم صديقان هما حسن ابن عمه ، وصادق الذى ليس قريبا له ولكنه يقاربه فى سنه ، وقد رافقاه ناشئا وعاوناه بعد ذلك مجاهدا .. ويبدو أن المؤلف يرمز إلى الصديق أبى بكر وعلى بن أبى طالب وحوادث القصة الآتية بعد تؤكد هذا.

ويأتى بعد ذلك حادث رمزيته بعيدة ولكنها محكمة .

سُرقت حافظة النقود من رجل كان قد عمل فى البيت الكبير ونال اجرا كبيرا فأخذ يصيح ويقول : سرق اللص نقودى ، وقال الفتوات :

نفتش الاحياء ونبدأ بحى جبل ، لكن فتوة حى جبل لم يقبل هذه التهمة . إذن نبدأ بحى رفاعة فلم يقبل فتوته أيضا .. وثار الجدل واللجاج بين الفتوات حتى اوشكت أن تقوم معركة تذهب فيها الرؤوس . ولكن قاسما تقدم باقتراح ، وهو أن تطفا جميع الانوار كي يلقى السارق الحافظة ، ثم تضاء ثانيا فيجد الناس الحافظة ولا

يغرف السارق وتنجو الاحياء كلها من شرور المعركة . وراقت الفكرة  
لديهم ، ووجدت حافظة النقود وأخذ الناس في الثناء على قاسم  
وأعجبوا بحسن رأيه

هذا رمز لموقف رسول الله ﷺ يوم أن اختلفت القبائل القرشية على  
وضع الحجر الاسود في مكانه من الكعبة ، ثم لما جاء رسوا الله ﷺ  
وضع عباءته ووضع عليها الحجر واشتركت القبائل في رفع الحجر  
باشتراكهم في تناول اطراف العباة ، وقد سر الناس جدا وأثنوا على  
هذا الرأي.

وفي هذا الموقف اسرف المؤلف في جعل قاسم ورفاقه وعمه  
يبالغون في الشراب والسكر وكان أحرى أن يجعلهم أطهارا أبرياء  
يترفعون عن الشرب والسفاهات .

عويس ابن عم « قمر » هو ورقة بن نوفل الذي كان مرجع السيدة  
خديجة في كثير من المشكلات .

وعن بداية الوحي إلى رسول الله ﷺ - صور المؤلف بطله قاسما  
وهو عند الصخرة وحده خاليا مع نفسه غارقا في أفكاره أسفا على  
أبناء الحي المحرومين ، وإذا شخص طويل فارغ الطول لم يتبين  
وجهه جيدا ، وقال له : « أنا قنديل خادم الجبلوى ، وارتاب فيه  
قاسم فقال قنديل له : أتبعنى حتى ادخل البيت الكبير ، وتبعه حتى  
أتى سور البيت فإذا سلم عال جدا - وليس في الحارة سلم يرتفع إلى  
السور ، ورقى قنديل على السلم حتى غاب .

قال قنديل لقاسم : إن الجد الكبير بخير ، وإنه يعلم كل شيء ، وأن  
المقيم في البيت الكبير يستطيع أن يطلع على كل كبيرة وصغيرة مما يقع  
في الحارة ولذلك أرسل بقمر إلى قاسم وقال له : لعل اختارك لحكمتك  
يوم السرقة ولأمانتك في بيتك ، وهو يبلغك بأن جميع أولاد الحارة  
أحفاده على السواء وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة ، وإن الفتونة

شر يجب أن يذهب .. قال قاسم : ولماذا يبلغنى ذلك ؟ - فأجاب قنديل :  
لكى تحققه بنفسك .

هذه الصورة اذن رمز لما كان رسول الله - ﷺ - يعمل اذ حبيب إليه  
الخلاء ، وجاءه جبريل عليه السلام بأول آية قرآنية فرجع بها يرجف  
فؤاده ، وقنديل هو جبريل - عليه السلام - وصعوده على السلم العالى  
هو رقيه إلى السماء في ليلة الإسرائ .

وعندما أعلن رسول الله - ﷺ - رسالته صدقه قليلون منهم  
الصديق أبو بكر وعلى وكان صبيا ، وقال ورقة : إنه الناموس الذى  
أنزله الله على موسى وعيسى ، وأمنت به زوجة خديجة ، هؤلاء لم  
يعهدوا عليه كذبا فلم يستسيغوا أن يكذبوه . وعرض المؤلف هذه  
الصورة في حوار بين زكريا عم قاسم ، وعويس كبير الحارة . قال  
زكريا : إنك أكبرنا مقاما وجاها فصارحنا برأيك . وقال عويس : أقول  
الحق إن « قاسم » رجل ولا كل الرجال ولكن حديثه اذار رأسى ، وقال  
صادق : أتحدى أى مخلوق أن يذكرنا بكذبة صدرت عنه ، فهو عندى  
مصدق .. وأقسم لكم على ذلك .. وقال حسن بحماس : وأنا كذلك ،  
وسيجدنى دائما إلى جانبه .

ولم يؤمن عويس برسالته ولا زكريا ، ولكن « حسن » أعلن إيمانه  
برسالته . وهذا الموقف معروف في السيرة ، إذ وقف على صغره بين  
القرشيين وأعلن تصديقه محمدا ﷺ .

كان القرشيون جامدين على ما ورثوا من عادات آبائهم ، وكانت  
نظراتهم مادية بحتة ، يخافون على مكانتهم ويخافون على أموالهم  
وقد سواهم محمد بمواليتهم وجعل للفقراء حقا في مالهم ، ولم يكن  
رسول الله - ﷺ - ينظر إلى شىء من الجاه أو المال ، وطن قومه أنه  
يريد الملك أو المال ، وقالوا : إن كنت تريد ملكا ملكناك وإن كنت تريد  
مالا جمعناه لك ما يجعلك أكثر غالا .

وفي الرواية لمحات من هذا في غير موقف ، من ذلك قول عويس :  
اننا نعد الطامح إلى الفتونة مجنوناً فما بالك بمن يطمح إلى نظارة  
الحارة جميعاً ؟ وقال قاسم : لست طامحاً إلى شيء من هذا ، إنما أريد  
الخير الذي أراده جدينا ، وإن كان من العرب من ينكر وجود الله . جاء  
في الرواية :

« ابن هو جدنا ، فليخرج إلى الحارة ولو محمولا على اعناق خدمه ،  
ثم فليحقق شروط وقفه كما يشاء .

وقال قاسم : لن أقلع عما في رأسي ولو ملكت الوقف كله .  
وجاء مرة أخرى في كلامه :

« إذا أذنت الأقدار بأن يوزع الوقف كما نريد فلم تحرم منه امرأة  
سيدة كانت أو خادمة ، قال الواقف : إن الوقف للجميع .....»

وهذه إشارة إلى قانون المساواة الذي جاء به الإسلام ، وقد كانت  
المرأة في الجاهلية محرومة من الميراث ، ولكن الإسلام قرر لها حقها  
في ذلك .

تأمر قاسم ورفاقه وصمموا على تنفيذ ما اعتزموا عليه ، وقالوا :  
إن الوقف للجميع ولا مكان بعد للفتوات ولا للناظر ، وبسبب ذلك  
كثرت مساءات الفتوات واعتداؤهم على قاسم حتى نجد واحدا منهم  
يفرغ على رأسه مقطفا من التراب ، ولعل ذلك إشارة إلى ما كان يفعله  
أبو جهل وكبار القرشيين وإلقاء سلا حيوان على النبي ﷺ وهو  
يصلى .

استقر رأى الناظر والفتوات على قتل قاسم ، وفي هذا الوقت الحرج  
ماتت ، قمر وهذا ناظر إلى موت السيدة خديجة ، ولم يكن لقاسم  
وصحبه بد من الهرب ، وسبقه عدد من الاتباع الضعفاء ، ثم تسلسل في  
ظلام الليل فلحق بهم فوجد مكانا آمنا ، واستقبله الصبية بالآغاني  
والأناشيد ، واستقر في مكان وراء الجبل بعيدا عن أحيائهم .



أبداع المؤلف تصوير مساوءات القرشيين وموت السيدة خديجة ، وأحداث الهجرة ، وكما كان في علي بن بى طالب عون كبير في أفلات النبي من إنداء قریش كان لحسن — ابن عم قاسم — عون كبير في أفلات قاسم ، وكان لصادق يد طولی كذلك ، وقد أرسل إليه ابنته بدرية للمساعدة أيضاً ، وبدرية تمثل السيدة عائشة ، وقد تزوجها قاسم أيضاً.

وفي الحديث عن مواقف الفتوات وتذمرهم من رأى قاسم ، لم يفت المؤلف أن يشير إشارة أو اشارات عابرة من حصار بنی هاشم في الشعب ، ولكن هذه مرت خاطفة في صورة حبس قاسم وأصحابه ومنعهم من الخروج من بيوتهم « مضت أيام وأسابيع وأشهر وقاسم لا يفارق داره » . كذلك لم تفته الإشارة إلى تعذيب أصحاب المستضعفين في مكة ، وقد كانوا يسامون أشق أنواع الهوان — جاءت الإشارة لهذا في صورة شخص اسمه شعبان وقد كان في طريقه إلى بيت قاسم ، ولكن اعترضه الفتوة « سوارس » وهو فتوة حى الجرابيع فاشتبك في عراك انتهى بقتل شعبان .

وسوارس هذا قد يكون صورة لأبى جهل أو أبى لهب أو غيرهما من أمثال أمية بن خلف ، وهؤلاء الاثرياء الأقوياء بمكة ، وقد عذبوا المستضعفين طويلا ، منهم من مات ومنهم من فر من مكة خفية ، وكانوا يراقبون المهاجرين ويمنعونهم من الهرب ، وقد صور المؤلف هذه الصورة ورددها كثيرا .

وتصرف المؤلف في حادث الهجرة فصور عددا من الفتوات يرصدونه ، ولكنه تمكن من الهرب قبل أن يدخلوا بيته ولما دخلوا وجدوه خاليا ، وفر قاسم وحسن تحت جناح الظلام ، ثم انضم إليهما صادق وآخرون وركبوا عربة يجرها جواد وأفلتوا .

ويوم هجرة رسول الله ﷺ — كان أربعون من فتيان قریش قد

استعدوا لقتله ، ولكنه افلتت ليلاً ، وتحت ستار الظلام ذهب هو وأبو بكر إلى الغار ثم ركباً ليلاً وذهبا قبل أن يدركهما أعداؤهما .

وللباس الموقف ثوباً شعيبياً جعلهما المؤلف يفران على عربة يجرها جواد . ودخل الأعداء البيت فلم يجدوا به احداً ، تماماً كما دخل الشبان بيت رسول الله ﷺ ليلة هجرته فلم يجدوه . وتصرف المؤلف هنا أنه جعل « حسن » يفر مع قاسم ، ولم يشأ أن يورد الحادث حرفياً .

وبعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة قامت بينه وبين مشركي مكة حروباً كان أولها غزوة بدر ، وفيها قتل الملا من قريش وهم أكابرهم ، وقتل أبو جهل الذي كان شديد الشكيمة على المسلمين ، وساد الحزن مكة بعد هذه الموقعة ، وتريص القوم لموقعة تالية ، وهكذا توالى الغزوات حتى كان فتح مكة وساد الإسلام .

والمؤلف يصور هذه المعارك على أنها معارك بالنسبائت اختلطت فيها الأصوات وشاركت النساء الرجال واستعملت الحجارة ، ولكن قتل الفتوة « لهيطة » وقد تكون هذه الشخصية رمزاً لأبى جهل ، فإنه قتل يوم بدر . ولم يأخذ الأعداء الناثرون جثة « لهيطة » كما لم يأخذ القرشيون جثة أبى جهل بل كان بين أصحاب القلب وكانوا عدداً معروفين ، وجاء في الرواية قول قاسم : تقدموا هذه جثة فتوتكم ، وورائى جثث رجالكم الآخرين . »

وفي غزوة أحد جرح رسول الله ﷺ - وفي الرواية قال صادق لقاسم : « إن الدم يسيل من أسنانك وذقنك » هذا لأن رسول الله ﷺ ضرب بحجر من ابن قمئة . فأصاب رباعيته ووقع على الأرض . وعن حزن المكين والدهشة التى أصابتهم بعد أن قتل صناديدهم وكبرائهم يوم بدر جاء في الرواية :

« لم تشهد الحارة كارثة كهذه من قبل ، رجع الرجال صامتين

ذاهلين ذابلين غاضين الأبصار كأنما شدت جفونهم إلى اديم الأرض ،  
ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة ، وأن الربوع ترتج  
بالطم والعويل ، وانتشر الخبر في الحارات والأزقة وباتت سمعة  
الحارة الرهيبة أهدوثة تلوكها السنة التشفى ... »

- وحقا كانت غاقبة وقعة بدر ذات مثار للدهشة من رجال العرب  
الآخرين ، فضلا عما حدث بين أبناء مكة .

وانتقل المؤلف سريعا إلى غزوة الفتح فتح مكة ، وفيها أخذ  
المشركون على غرة ولم يسعهم إلا الإستسلام ، عدا محاولة فاشلة  
قادها صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ولكنها لم تستطع الثبات  
وفر صفوان وفر عكرمه ولحقت القوم السيوف المسلمة ضربا ولا  
تسمع إلا دمدمة ، وظن القوم أن المسلمين سيفتكون بهم جزاء ما  
قدموا لهم من مساوات ، ولكن رسول الله ﷺ - قال : إذ هبوا فأنتم  
الطلاق ، وكان خالد بن الوليد هو الذى شنت الجماعة التى قادها  
صفوان وعكرمة ، ولكن رسول الله ﷺ - لم يكن راضيا عن هذه  
الحرب . وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما يفعل خالد ، وأعلن بين الناس  
المساواة والعدل ، ففرحوا وإطمأنوا .

ونقتطف من الرواية هذه العبارات :

« ألفت أناس .. رأوا « قاسم » أمام البيت الكبير » .

« ضج المكان بصيحات التحذير وتتابع الأحداث في سرعة  
خاطفة أمسكت الأيدي عن الضرب كأنما شلت » .

« وصاح قاسم بأعلى صوته : لا نريد أذى لأحد ، لا غالب ولا  
مغلوب ، أبناء حارة واحدة . وجد واحد ، والوقف للجميع .. »

وأشار المؤلف أيضا إلى وقعة الخندق التى قرر منها صفوان  
وعكرمة فوصف فتوة الحى ينقض على قاسم ورجاله ، وفتوة الحى  
هنا هو « جالطة » ، « وانقض عليه حسن وصادق وهو مشتبك مع

قاسم ، فضرب صادق نبوته وهوى حسن نبوته على رأسه .. واندفع  
يجرى كالثور الذبيح .. انتهت المعركة . سكنت أصوات النباييت  
وصرخات الرجال . وقف المنتصرون وهم يلهثون ويمسحون الدماء  
عن الوجوه والرؤوس والمعاصم وخاطب صادق « قاسم » قائلاً :  
انتصرت ، نصرك الله ، ان جدنا لا يخطيء في اختياره .

« وهكذا تم النصر لقاسم وأصبح رجل الحارة غير منازع » .

« ومضت اربعون يوماً في هدوء فالتامت الجراح وسكنت النفوس  
وأطمأنت القلوب الكبيرة وقال : هنا يقيم الجبالوى ، جدنا جميعا ،  
ولا تمييز في الانتساب إليه بين حى وحى ، أو فرد وفرد ، أو رجل  
وامرأة » .

« تهلت الوجوه في دهشة وبشر وبخاصة وجوه الذين توقعوا ان  
يسفحوا مقالة رجل ملك وانتصر » .

وفي هذا اشارة الى وقفة رسول الله ﷺ — عند باب الكعبة وقوله  
للناس : اذهبوا فانتم الطلقاء . وإلى إعلان كلمة التوحيد وشعائر  
الاسلام .

« وتبادل الناس البظرات كأنهم في حلم » .

« في ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم ، وآخرون عن هزيمتهم ،  
ونظر الجميع الى الغد كأنما ينظرون الى بزوغ البدر في ليلة من ليالى  
الربيع .. »

« ولم تنعم حارتنا قبله بمثل ما نعمت به في أيامه من الوحدة  
والألفة والسعادة » .

تحدثت الرواية بعد ذلك عن حياة قاسم وسلوكياته . وكلها صور  
من حياة النبی الكريم .

تحدثت عن المنافقين الذين كانوا يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام

وهم من اليهود الذين انفوا من اتباع نبي أمي من العرب وهم شعب الله المختار. فجاء فيها : « أجل كان ثمت أحد في آل جبل يضمرون غير ما يظهرون ، ويتهامسون فيما بينهم : « انكون من جبل ويحكمنا جربوع من الجرابيع ، ومثلهم وجد في آل رفاعه ، بل لم يخل الجرابيع من نفر أخذتهم العزة والزهو .. »

وحقا لم يدخل العرب جميعا في الاسلام يوم الفتح ، ولكن جاءت وفودهم الى المدينة بعد ذلك .. منهم من اذعن لكل تعاليم الاسلام ، ومنهم من اراد ان يشترط اعمالا خارجة عن الدين وطبعا لم يجب اليها .

وأوثر أن أنقل هذه العبارة كما جاءت في الرواية :

« وراي الجرابيع فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله قبله ولن يوجد مثله بعده ، جمع بين القوة والزرقة والحكمة والبساطة ، والمهابة والمحبة ، والسيادة والتواضع والنظارة والإمانة والى ذلك كله كان ظريفا بشوشا انيقا ، وعشيرا تطيب مودته » .

وأشارت الرواية أيضا الى ازواج النبي - ﷺ - وهو قد تزوج سودة بعد خديجة وقبل عائشة ، واكتمل في عصمته تسع من النساء ، وتزوج من يهوديتين هما صفية بنت حبي ، وجويرية بنت الحارث ، وقد أسلمتا ، ولم يتزوج نصرانية ، ولكن المؤلف قال : « فعل حبه لبدرية تزوج من حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعه . وتعشق امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها أيضا »

ولعله يقصد بهذا زينب بنت عمه التي كانت زوجا لزيد بن حارثة ، وهو لم يتعشقا وتزوج منها لغرض ذكره القرآن الكريم إذ قال : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في ازواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا .. » والمؤلف جارى بعض المستشرقين ، وليست هذه أولى أخطائه .

وذهب يذكر تعليل هذا الزواج وما يقال فيه فقال :

« وقال أناس في ذلك : انه يبحث عن شيء افتقده من فقد زوجته الأولى قمر ، وقال عمه زكريا : انه يريد ان يوثق اسبابه بأحياء الحارة جميعا » .

والمؤلف هنا - وهو دون ريب - يحاكي بها شخصية النبي الكريم محمد - ﷺ - يسعى اليه إذ يردد أفكار الكتاب الغربيين عنه ، وهم يتهمونه بأنه زير نساء وأسير شهوات . فجاء في كلامه :

« لكن حازتنا لم تكن بحاجة الى تفسير أو تعليل لما حدث ، بل الحق انها اذا كانت أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته مرات ، وأن حب النسوان في حازتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون ، ومنزلة تعدل في درجتها الفتونة في زمانها أو تزيد »

وهذا كلام ما ينبغي ان يكتب فهو إهانة وعدم تقطن لحقيقة الأمر ، وكان ينبغي ان يذكر أو يشير إلى ان اللائي تزوجهن « قاسم » بعد بصرية كن من الثيبات ، أو يشير إلى ما حدث من تزوجه واحدة من آل جبل ، وأن زواجه منها كان بركة على ذويها ، وأن عددا كبيرا من قومها انضم اليه وأنس به . وذلك إشارة إلى ما حدث من دخول عدد كبير من اليهود في الإسلام بسبب زواج النبي - ﷺ - من صفية أو جويرة .

ولكنه وصفه من قبل بالصدق والأمانة وإشاعة المساواة بين الناس ، ثم جاء في ختام الفصل :

« ومهما يكن من أمر فإن حازتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقا ، وبأن أمرها قد آل إلى نفسها دون ناظر يستغل ، أو فتوة يستذل ، ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه من الإخاء والمودة والسلام »

فواضح من هذه العبارات أن السلام والإخاء والمودة والمساواة التي نشرها الاسلام لم يكن لها نظير من قبل .

### وفي موضع آخر جاء في الرواية قول قاسم :

« أه لو تستقم الامور فلا يبق لك يا حارثتنا الا الفناء ! غدا يمتلئ  
الناس بالاعوان الاقوياء والصادقين . غدا ، نتحدى بهم الناظر  
والفتوات وجميع العقبات ، كيلا يبقى في الحارة الا جد رحيم واحقاد  
بررة ، ويمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان ، وتختفى  
الحشرات والذباب والنباييت .. وتسود الطمانينة »  
ويبدو في هذا التصوير مبادئ الاسلام السامية من حب العدل  
والمساواة وكراهية الطغيان والظلم .

وطاب للمؤلف ان يصور زفة زواج على الطريقة الشعبية ، وأن  
يصور حياة قاسم بعد زواجه صورة شخص يتمتع بالمال وأوقات  
الفراغ ، ثم كان من دماثة اخلاقه ولين جانبه ان احبه العملاء الذين  
يستأجرون املاكا من قمر ، وكان الناس حتى عويس ابن عم قمر  
يظنون انه سيتخذ من هذا المال وسيلة للبخذ والمتع الاثمة ، لكنه كان  
ينشد سعادة الناس جميعا ولم يشأ أن يكون فتوة ولا صاحب قوة  
على الآخرين ، وكان يقول : « العبرة بالقوة التي تصنع الخير ، كقوة  
جبل وقوة رفاعة لاقوة البلطجية والمجرمين »

وهكذا كان رسول الله ﷺ - ينشد ما جاء به النبيون من  
قبله ، والرواية ذكرت فقط « جبل » الذي يحاكى شخصية  
« موسى » ورفاعة الذي يحاكى شخصية عيسى .

### وجاء ايضا في الرواية :

« ما اعطفه على اولاد حارثه الذين يحلمون بالسعادة عبثا لماذا  
لا ينعم بالسعادة المتاحة ويفغض العين عما حوله ؟ »  
« ولعل هذا التساؤل حير يوما جبل ، كما حير يوما آخر رفاعة ،  
كان في وسعهما ان ينعم بالراحة ويخلدا الى السكينة والسلام ، فما  
سر هذا العذاب الذي يطاردنا ؟ »

ونجد صورة أخرى لثقافة المستضعفين حول النبي محمد - ﷺ - وإعداد أنفسهم للنضال في سبيل عقيدتهم . وجاء في الرواية :

« وما هو حوش بيته يستحيل ناديا لتقوية الابدان وتطهير الارواح وهو مثلهم يرفع الانتقال ويتعلم الخطيب . وصادق امتلأت عضلات زراعية . أما حسن فياله من مارد عملاق ، والآخرون ما ابهر حماستهم .. أجل إنهم قلة ولكنهم لطمسوحهم اذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم »

وكان قاسم يقول : « لماذا يكذبني آل جبل ورفاعة . ومنهم من قابله الجبلوى أو حادثه . لماذا يكذبوننى وهم اولى الناس بتصديقى وتأييدى؟ »

وبعد الانتصار العظيم الذى يصور فتح مكة ، ودهشة الناس للتسامح الذى لم يكن أحد يتوقعه .

#### جاء في الرواية :

« في ذلك اليوم تعزى قوم عن موتاهم وآخرون عن هزيمتهم ، ونظر الجميع الى الغد المأمول كأنما ينظرون الى بزوغ البدر في ليلة من ليالى الربيع » « ووزع قاسم الريع على الجميع بالعدل بعد الاحتفاظ بقدر للتجديد والانشاء ، أجل كاد نصيب الفرد ضئيلا ، ولكن إحساسه بالعدل والكرامة فاق كل حد .. »

وهذا تصوير لتوزيع الغنائم بعد الاحتفاظ بجزء منها هو الخمس لببيت المال . وحقا بعد فتح مكة سادت مبادئ الاسلام وانقطعت مظالم الجاهلية ، وغمرت الناس سعادة لم يكونوا يحلمون بها ، ولكن حياة رسول الله - ﷺ - لم تطل بعد ذلك ، فانتقل إلى الرفيق الأعلى بعد عامين تقريبا ، وخلفه الصديق أبو بكر ، بينما كان أنصار على يرون أنه الأحق بالخلافة ، ثم ما لبثت الخلافة ان تحولت ملكا عضوضا ، ثم جاء خلفاء لم يرعوا واجب القوانين الاسلامية ، وربما ظهرت



بعض التقاليد الجاهلية من عصبية القبائل وانتصار بعضها لبعض  
أو عدا بعضهما لبعض .

### وجاء في الرواية :

« المتأمل لحال جارتنا لا يصدق ما تقول الرباب في القهوات في  
جبل وفي رفاعة وفي قاسم .. أين قاسم والحارة الواحدة والوقف  
المبدول لخير الجميع ، وماذا جاء بهذا الناظر الجشع وهؤلاء الفتوات  
المجانين ! ستسمع بين الحشرات والضجكات أن صادق خلف قاسم  
على النظارة فسار سيرته ، وإن قوما رأوا أن حسن أحق منه بالنظارة  
لقربته من قاسم . لأنه الرجل الذي قتل الفتوات وأنهم حرضوا حسن  
على رفع نبوته الذي لا يقاوم فأبى أن يعود بالحارة إلى عهد الفتونة ،  
لكن الحارة كانت قد انقسمت على نفسها ، ومضى أناس في آل جبل  
وآل رفعة يجاهرون بما كانوا يضمرون . ولما رحل صادق عن الدنيا  
أسفرت الرغبات المكبوتة عن وجهها الشائه . ونظراتها العدوانية ،  
واستيقظت النبائيت بعد رقاد .

وهذا كله يصور ما ذكرنا ، ولكن هذا الخروج على القانون لم  
يجدث بعد الصديق مباشرة ، فهناك العهد الراشدي ، عهد يمتاز  
بسيادة القانون الاسلامي ، قانون العدالة والمساواة والرفق  
بالضعاف والفقراء وقد كان الإمام على طامحا الى الخلافة بعد وفاة  
رسول الله - ﷺ - وتباطأ في بيعة أبي بكر ، لكنه لم يشأ أن يشق عصا  
الطاعة وإن يقسم الدولة وهذا ما يفهم ايضا من جملة : « حرضوا  
حسن على رفع نبوته الذي لا يقاوم فأبى أن يعود بالحارة الى عهد  
الفتونة »

لكن بعد هؤلاء ، سفر العدا بين الامويين والعلويين ، ثم بين  
الامويين والعباسيين ، واشتدت الكراهية وحب الانتقام ومن ذلك قتل  
زيد بن الحسن بن علي في عهد هشام وصلبه مدة طويلة ، فلما جاء

العباسيون نبشوا قبور الامويين ، وعادت الحياة الى مثل ما كانت عليه في الجاهلية .

ثم ظهرت الزندقة ، وتجاهر اليهود بطرق شتى وبوسائل مختلفة لكيد الاسلام ، وكذلك فعل النصارى . وقالت الرواية : « ومضى أناس في آل جبل وآل رفاعه يجاهرون بما كانوا يضمرون » ..

على أى حال ظلت الحياة تعاني ظلم الاقوياء حتى جاء العصر الحديث وظهر انكار الدين وانكار وجود الله ، وهذا ما عناه الفصل الذى خصص لعرقه .

## عزفة

هذا هو الفصل الأخير من الرواية ، ويبدأ المؤلف بأن الحارة بعد ذهاب قاسم عادت إلى ما كانت عليه من قبل ، ظهر فيها الفتوات الجبابرة المتسلطون ، وفرضوا على الناس الاتاوات ، وعاد ناظر جديد على الوقف من نسل الناظر السابق ، وقد بدأ سيرته أولا باعتدال أو بشيء من الاعتدال ، ثم ما لبث به اطماعه وأغراه جبروته فطغى وتجبر واتخذ من الفتوات أعوانا له أو أسلحة يشهرها على رؤوس الضعفاء ، ولم يبق شيء من آثار الإصلاح الذي أقامه قاسم ، والشعراء في المقاهي يتحدثون عن آمال ادهم في المساواة وعمن تلاه من جبل ورفاعة وقاسم ، ولكنها مجرد اقوال للتسلية . ولا يستطيع واحد من الضعفاء أن يطالب بإعادة شيء منها ، حتى اننا نجد رجلا شيخا اخنت عليه الايام ، يشرب مرة حتى يسكر فيهذى بما لا يعرف ولا يدري ، فوقف وهو تحت خمار ما يشرب « يطالب بأعلى صوته أن تعود الحياة الى ما كانت عليه ايام قاسم » لكن « الفتوة الكبير » انهال عليه ضربا وصفعا ولم يتركه حتى اغمى عليه .

هذا لون من تسلط الفتوات . اما عن فقر الحارة وسوء حال الناس

فنجد صورة منها في هذا الرجل المسكين نفسه ، يضع امامه في الشارع قفصا يغطيه بثوب قديم رث ، ويجعله « الطبلية » التي يضع عليها أكواب الشاي والقهوة ، ويبيع الكوبة بمليمين «نكلة» وتساعد ابنة له في ريعان شبابها ولكن سمات الفاقة بادية عليها من ملابسها ومن عين لها موجعة متورمة لا تجد ثمن الدواء الذي يصحبها .

وصورة أخرى مما ألت إليه الحارة يصوره في قوله :

« ان الناظر يستأثر بنصف الربيع — ريع الوقف — ويوزع النصف الآخر على الفتوات الاربعة الذين استأثروا به من دون المستحقين ولم يقفوا عند ذلك بل جاوزوه بكل وقاحة الى فرض الاتاوات علي اتباعهم المساكين ، وتعطلت حركة الانشاء حتى توقف البناء في بيوت لم يشيد منها الا نصفها وربيعها » .

وهذا تصوير لحال الناس حين يذهب المصلحون وتندثر مبادئهم ولا يبقى منها الا ذكريات ، ثم هو تصوير ايضا لعاقبة الظلم وأثارة السيئة على الناس ، ولعل المؤلف يشير الى حركة التأميم وتخفيض اجارات البيوت في العهد الناصري ، وإذ كان من آثارها أن توقف البناء ، وظل متوقفا من بعد ، والرواية نشرت في جريدة الاهرام في اوائل الستينات . وهى ايام التأميم ، وقد نشأ عن هذه الحركة انقلاب لموازين الحياة وانتكست الحضارة . ويقول المؤلف في وصف حال الناس :

« أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما كانوا عليه في الزمان الأسود بلا كرامة ولا سيادة تنهكهم الفاقة ، وتتهدم النبائيت ، وتنهل عليهم الصفعات ، وانتشرت القذارة والذباب والقمل ، وكثر المتسولون والمشعوذون وذوو العاهات ، ولم يعد جيل ورفاعة وقاسم الاسماء واغانى ينشدوا شعراء المقاهي المتسولون والناس هنا وهناك تقلت من شفاههم كلمات اليأس والاستسلام » .

في هذا الجو ظهر عرفة .

وعرفة من ابناء الحي القدامى تغرب زمنا طويلا مع أمه ثم عاد الى الحارة وأمه كانت عجبرية ضاربة ودع ، وهو مجهول الأب - ابن حرام - وفد على الحارة ومعه قزم تابع له ، وكان الفقير باديا عليه لا يكسوه الا جلباب واحد وقد شد على وسطه حزاما ليحمل في وسطه اشياء له . وحذاؤه بال متهتك وليس على رأسه غطاء . وشعره اشعث يهزير . واستغفريه الناس أولا ، ثم عرفهم بأمه فتذكروها اذ كان هو طفلا يتبعها ، واخيرا أرشدوه الى بدروم في حي رفاعة كانت تسكنه امرأة ماتت محروقة فتشأم الناس منه وخافوه ، ولكنه قبله وسكن فيه ، وسرعان ما انتشر نبا عودته .

كان عرفة ساحرا وصاحب مخدرات ، ومحترفا للطب وصناعة الدواء ووجد البدروم مناسبا وأوسع مما كان يتوقع ، وخصص منه حجرة للمقابلات وأخرى للنوم وجعل الثالثة معملا يعد فيه أشياء ه التي يزيدها ، وصورت الرواية هذه الحجرة والادوات التي يعمل بها :

« كان عرفة وحش يعملان بهمة في حجرة البدروم الخلفية على ضوء مصباح غازي مثبت في الجدار لم تكن الحجرة تصلح للحياة العادية ، فجعل عرفة منها مقرا لعمله ، وبدت على أرضها وأركانها مجموعات من أوراق الأجبنة والأترجة والجير ونباتات وتوابل وحيوانات وحشرات مجففة كالفيران والضفادع والعقارب ، واکوام من قطع الزجاج وقوارير ومياه في صفائح وسوائل غريبة ذات رائحة نفاذة وفتحم وكانون وقد ركبت على الجدران رفوف حملت بأنواع شتى من الأوعية والأنية والاكياس ..

هذه هي الحجرة أو هذا هو المعمل . وهذه الادوات عجيبة ، منها ما هو من أعمال السحرة الدجالين ، ومنها ما يناسب العلماء الباحثين ، لكن عرفة كان متقائلا بها يرجو من وراثها المال الكثير ويقول

لصاحبه « حنى » : « لا تياس فالنقود تكثر يا صبر . ويقول  
لصاحبه : لا تخرجنى عن افكارى ، اى مغفل ممن يحسبون انفسهم  
معلمين فى هذه الحارة لا يستطيع ان يدرك خطورة الاشياء التى  
تصنع فى هذه الحجرة المعتمدة القذرة ذات الروائح الغريبة . إن  
أعاجيب لا يحيط بها الخيال يمكن ان تخرج من هذه الحجرة .  
المجانين لا يدركون قيمة عرفة الحقيقية ، لعلهم يعرفونها يوما ما . »

هذا عرفة الفقير الأفاق ، دخل الحياة من باب ضيق ولكنه نال منها  
ما يريد ، هامل الناس معاملة عجيبه ، استولى على الفتوة بقرص  
أو حبة من الخدر ، فجاء الآخرون يسألون عنها ويطلبون مثلها ،  
وحجرتهم تجمع بين السحر والبحوث العلمية . ماذا يريد به المؤلف أو  
أى شخصية يحكيها هذا الأفاق النصاب ..

لم يورد المؤلف له اشياء تتعلق بأعمال السحرة أو إحصار  
الجان ، ويبدو انه أراد به نزعاً علمية حديثة تعتمد على الطاقات  
الكامنة فى المخلوقات ، وهى بحوث لا تعتمد على جأه ولا نسب ، ولهذا  
جعل عرفة مجهول الاب ، وما سماه المؤلف سحرا يعنى الأعمال  
العلمية التى ظهرت فى العصر الحديث من مثل البارود والكهرباء  
والمفرقات والآلات الدمار التى لم تكن معروفة قبل ذلك ، ويبدو فى  
عرفة هذا الاعتزاز بعمله والاستهانة بالمعتقدات الدينية فهو يقول  
للفتاة بائعة الشاي : « اين جدنا ؟ ابوك يتحدث عن قاسم ، وقاسم  
حدث عن جدنا . هكذا نسمع ولكن لا نرى الا قدرى وسعد الله  
وعجاج والسنتورى ويوسف (الفتوات) نحن فى حاجة الى قوة  
لتخلصنا من العذاب فماذا تجدى الذكريات ؟ »

ويقول عن أعماله : السحر شىء عجيب حقاً ، لا حد لقوته ولا  
يدرى أحد أين يقف ، وقد تبدو النبائيت لمن يملكه لعب أطفال .

وهذا ما يتكرر على السنة الناس من ان العلم لا يعرف الكلمة

الآخيرة في أى باب من أبوابه ، ولا يندرى اخذ أين ينتهى ، ثم نجده يطب لعين الفتاة المسكينة بائعة الشاي بشيء من معلوماته ومواده فتصحو وتصح .

**وهو مفتون بحجرته وما يجرى فيها من الاعمال :**

ولكنى املك الاعاجيب في هذه الحجرة ، ومنها قوة لم يحز عشرها جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين .

ثم نجد مما لديه زجاجة محكمة الإغلاق يريد تجربتها في الفضاء بعيدا عن اعين الناس حتى لا يفتضح امره ، هى اذن قنبلة أو ما يقوم مقام القنبلة .

انه العلم الحديث يطغى على عواطف الديانات ، ويجب عرفه زوجه اذ تقول : ربك قادر على كل شيء بقوله : كذلك السحر فهو قادر على كل شيء وعلى اشياء لا تحصى ، وقد يتمكن يوما من القضاء على الفتوات انفسهم ، وتشيد المباني وتوفير الرزق لكافة اولاد حارتنا ، السحر أثره لا يزول .

**وتقول عنه زوجته :**

« هو لا يبدو كبير الثقة بالجبلاوى ولا بما تحكى الرباب عن (جبل وعمران وقاسم ) ومن المؤكد انه بات يعطى السحر من جهده ووقته اضعاف اضعاف ما يتطلبه الرزق ، واذا فكر جاوز تفكيره شخصه واسرته الى مسائل عامة لا يعنى بها احد » .

وهو يقول ايضا : اعمال الجبلاوى في الخلاء لا يفسرها الا السحر .

وهو ايضا لا يؤمن من بالغيب « حجرتى الخلفية علمتني ألا أومن بشيء إلا إذا رأيته بعيني وجريته بيدي .. »  
وهذه هى لغة العلم الحديث .

قد رأينا من قبل ان المؤلف رمز لشجرة المعرفة التى نهى الله - تعالى - آدم ان يأكل منها بوصية محفوظة فى حجرة الجبلوى الخاصة ، وعند ما حاول ادهم ان يطلع عليها طرد من الجنة ، وهنا يجعل عرفة مشوقا الى الاطلاع عليها ، فالرمزية اذن تعنى كلف العلم الحديث بمعرفة المجهول والاستزادة من المعرفة ، ولا يكتفى المولعون بالمعرفة ولا يقنعهم ان يعيشوا عيشة رغدة هنيئة ، فالطعام والحيوانات العجم يكفيهم هذا ، أما ذوو العقول والتفكير فلا يرضون بهذه الحياة ويعنيهم اصلاح الناس وكشف المجهول فى هذه الدنيا . « كان بوسع جبل ان يبقى فى وظيفته عند الناظر ، وكان بوسع رفاعة ان يصير نجار الحارة الاول ، وكان فى وسع قاسم ان يهنا بقمصر واملاكها وان يعيش عيشة الاعيان ، ولكنهم اختاروا الطريق الاخر .. »

وقد تناسى المؤلف هنا تكليف الجبلوى اياهم بما عملوا ، وفى هذا ايضا تناسى الوحى الى موسى وعيسى ومحمد .. هكذا تقول الرباب وسوف اعرف حقيقة كل شىء .

ويقول صاحب عرفة :

« فى هذا الخلاء كلم (الجبلوى) بنفسه جبل وأرسل خادمة الى قاسم » .

كان عرفة يقف فى مكاننا (عند السور الخلفى بالبيت الكبير) عندما ترامى اليه صوت الجبلوى .

وهذا تصوير تقريبى لتلقى هؤلاء الانبياء وحى الله دون ان يروه والعلم الحديث شديد الثقة بنفسه ، مستهين بالمشاعر والاوامر الدينية ، وتبدو الاستهانة فى قول عرفة :

« وفى هذا المكان قتل رفاعة . واغتصبت أمنا وضربت ، ولم يحرك جدنا ساكننا » . وانظر قول رفاعة :



« أنا عندي ما ليس عند أحد ، ولا عند الجبالوى نفسه ، عندي السحر وهو ما يستطيع أن يحقق لحارتنا ما عجز عنه جبل ورفاعة وقاسم مجتمعين » .

« السحر لا نهاية له ليس لدى الآن منه الا بعض الادوية .. أما ما يمكن أن يوجد فلا يحيط به خيال » .

وهذا هو ما قلناه من قبل من أن السحر هو العلم الحديث الذي لا تعرف له نهاية والذي يستهين بمشاعر الدين .

تستثمر الرواية فتذكر أن ناظر الوقف في الحارة بعد قتل الفتوة الذي كان يستند اليه ويتقوى به - وكان قد سحر عرفة - استندى عرفة منه وأسكنه في البيت الذي كان به الفتوة ، واستراح عرفة الى نعيم الحياة في هذا المنزل الجديد عليه ، وانغمس مع الناظر في الوان الترف وفي الحفلات الساهرة الراقصة مع الفواتن العاريات ، وفي الوان الشراب والسكر والعريضة ، وانحرف هو ايضا وجرفه تيار الفساد فغوى وعشق حتى أن زوجته الفقيرة بنت بائع الشاي أنفت من العيش معه فتركته وذهبت الى بيت امرأة عجوز كانت تعرفها ، وأثرت عيشة الفاقة والمسكنة على هذه العيشة الملوثة وإن غمرها نعيم المتاع .

• وناظر القصر رجل ماكر خبيث مازال يألف عرفة ويستدنيه حتى حصل من عنده على كمية من الزجاج السحري ، واقام عليه حرسا يرقب حركاته ، وكان عرفة في احاديثه مع الناظر يتحدث عن الوقف وعن المحرومين منه من اهل الحارة والناظر يضيق بهذا الكلام . وكل منهما بيت أمرا ، أما الناظر فكان يخشى عرفة وسحره وقرر التخلص منه مكتفيا بما حصل عليه من زجاجات السحر ، فهي تقنيه من الفتوات وحسبه ذلك .

وأما عرفة فقد يئس من توزيع الوقف بالانصاف ، ورأى ان

الافضل له ان يهاجر ، وكانت زوجته وتابعه «حنش» يلحان عليه في الهرب ، ولكنه كان يرى ان عليه رسالة لابد ان يتتها وهي انصاف ابناء الحارة ، ولكنه رأى اخيرا ان يخرج منها ليعد عدته ويهيئ نفسه للعودة الى الحارة ليخلصها مما يريد ان يخلصها منه .

وفي إحدى الليالى المظلمة جاءت خادمة الجبلوى — تلك العجوز السوداء التى رأها ليلة ان اقتحم القصر — جاءت اليه لتخبره ان الجبلوى وهو يعانى الاحتضار بين يديها امرها ان تبلغه أنه راض غنه ، قالت : قال لى : « اذهبى الى عرفة الساحر وأبلغيه عنى ان جده مات وهو راض عنه »

واستغرب عرفة هذا النبأ لكن العجوز اكدت له ذلك ، ففرح به كل الفرح وشد ذلك من عزمه على الهرب ، ولم يصدق رفيقه اول الامر . وحسب ذلك من خيالات السكر ، ولكن ازاء التاكيدات الكثيرة الشديدة اذعن .

كان عرفة وصاحبه وزوجه يودون الهرب ولكنهم يخشون عيون الناظرين من حولهم ، وظل عرفة وحنش رفيقه مجدين في العمل في الحجرة التى خصصاها لذلك وفي العمل الذى جهزاه .

ورأى عرفة ان يدون اسرار سحره ورموزه في كراسة ليرجعا اليها عندما تدعو الحال لذلك .

وأخيرا استحكمت في ذهنه فكرة الفرار فإنه من الصعب والمستحيل ان يؤدى رسالة في هذا الجو ، عيون الناظر تراقبه في كل مكان : ولكن كيف الهرب في مثل هذا الجو الرهيب !!!

تربص هو ورفيقه حتى القى الليل على الكون حجابا كثيفا من الظلام القاتم ، وتوقع انه اذا خرج فلن يراه احد ، وإذا راوه فلن يضيروه بشيء لأنهم ألقوه ، وكان على نفسه من المسرفين . إن الناظر ماهر عميق التفكير وجواسيسه يخبرونه بكل شيء . لقد حدث عرفة

من قبل أنه يعرف تسلكه إلى داخل البيت الكبير وقتل الخادم الذي سببه مات الجبلأوي كمدا ، كما أنه يعرف أنه قاتل الفتوة الذي كان عينا ، وبدا للناظر والأفلات منه حتى تحت ستار الظلام ليس يهين .  
واحتال عرفه جهده وخرج هو ورفيقه في صمت تام واتجها نحو بيت العجوز التي ضربت عندها زوجته ولكنه لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان . دخل وترك صاحبه خارج البيت لينذره بخطر الحراس - حراس الناظر - اذا اتوا .

وصعد الى زوجته في غرفة العجوز المسكينة على السطح وأخذ يعتذر اليها ويستحثها على الهرب معه ، ولكنه فوجيء بإنذار صاحبه ونظر فإذا الشوارع ملاء بالحراس جاءوا ليطارقوه ثم ليردوه إلى الناظر وكانت معه كراسته التي دون فيها أسرار سحره ، فرمى بها بسرعة في « منور » البيت حرصا عليها ان يأخذها الحراس ويكشفوا أسرارها .

لم يستطع الهرب من مطارديه الكثيرين فأمسكوا به هو وزوجته وتيدا أيديهما إلى ظهورهما واستقوهما إلى الناظر . اما رفيقه حنش فقد أفلت : انهال الناظر عليهما ضربا وتأنيبا ، ثم نادى رجاله ثم امر بوضع الزوجه في شوال احكم فمه اغلاقا .

وقال عرفه للناظر : ان صناعه لديه أسرار السحر ، وأنه عما قريب سينتقم منه ومن اعوانه ، وسخر الناظر من هذا التهديد وقال : « عندي من القوارير ما يحمينا الى الابد »

ووضع عرفه - في شوال ايضا ، وذهب الحراس به وزوجته الى الخلاء فحفروا لهما حفرة القوهما فيها ، وهالوا عليهما التراب .

شاع الخبر في الحارة ان عرفه قد قتل ولكن لم يعرف الناس كيف قتل ، وان كانت الاشاعة قد زابت بأن الناظر تخلص منه .

شمت في عرفه الكثيرون وسبه الكثيرون وقال القائلون إنه  
اساءهم بقتله الجبلوى واعطائه الناظر سلاحا فتاكاً من السحر  
الذى عمله .

ظهر « حنش » بعد ذلك للمرأة العجوز وسألها عما ترك عرفه  
فقالت : انه رمى كراسية في المنور ، وراح يبحث عنها فلم يجدها ،  
فذهب يسأل حاملي الزبالة اين القوا زباله هذا المنور ، ثم ذهب الى  
مستودع الصالحية يبحث بين الزبالات .

وبارتاع الناظر واخذ يبحث عنه ووعده بمكافأة سخية لمن يرشد  
عنه ، وكان الحراس ذهبوا الى اكوام الزبالات ليقبضوا عليه فلم يجده  
هناك فقد اختفى اذن والكراسة معه .

وتناقل الناس هذا النبا وقالوا : ان « حنش » سيعود مرة ثانية  
ليقتل الناظر ويعيد سيرة غرفة ، ولكراحتهم في الناظر تواصلوا أن  
يعاونوا « حنش » اذا عادوا ونمت العاطفة حتى كلنا يكون عرفه ،  
وفاضت السننهم بالثناء عليه ، وقالوا اضعنائه ولم تنصره ، وقالوا  
كان رجل الحارة الاول والاخير حتى ولو كان هو قاتل الجبلوى ..  
وقال بعضهم قد يعود « حنش » بسحر رفاعه .

ثم لوحظ اختفاء بعض الشبان تباعا وقيل في تفسير اختفائهم  
انهم اهدوا الى مكان خنش فانضموا اليه ، وأنه يعلمهم السحر  
استعدادا ليوم الخلاص الموعود ، واستحوذ الخوف على الناظر  
ورجاله ، فبشوا العيون في الاركان ، وفتشوا المساكن والدكاكين ..  
حتى باتت الحارة في جو قاتم من الخوف والحقد والارهاب ، لكن  
الناس تجملوا البغى في جلد ولاذوا واستمسكوا بالامل .. وقالوا لا بد  
للظلم من آخر ، ولليل من نهار ولثرين في حارتنا مصرع الطغيان  
ومشرق النور والعجائب .

بهذا انتهت رواية « اولاد حارتنا » - وهى في جملتها ومختلف

مواقفها تمثل المعركة الابدية الدائرة بين الخير والشر ، بين الظلم والعدالة . تصور بغى الاقوياء على المستضعفين . الاقوياء يتمتعون ويظهون في اسراف وبذخ ، والضعاف الفقراء يلهثون وراء لقمة العيش ووسائل الاعلام التى تتمثل فى اناشيد الرباب يعينها قبل كل شىء ان تتملق الحكام وتثنى على الاقوياء ، فلذا أرادت اطراب الناس وتسليتهم ذكرتهم بأمجاد المصلحين السابقين ، وليست ذكرياتهم وأمجادهم الا خيالات واحاديث لهو على نحو ما يتغنى شعراء الرباب فى الريف ببطولات بنى هلال .

ويلاحظ ان المؤلف جعل كل واحد من هؤلاء الثلاثة يأتى والحارة تعج بصور من الفساد والظلم والتعالى من الاقوياء ينال الضعفاء ، وبسبب استبداد الحكام فى كل موقف ، وخوف الناس منهم يشيع النفاق وتكثر المداينة والرياء ، فالناس يكرهون ناظر الوقف ويكرهون الفتوات ، ولكنهم يداهنونهم ، والشعراء يتحدثون بمآثرهم ويبدؤون حديثهم بالثناء على الناظر ثم على فتوته .

وهذا مستساغ لانه حين يشتد الظلم يظهر المصلحون والناس دائما يقولون : اشتدى أزمة تنفرجى .

ودعاة الإصلاح دائما يعينهم صلاح أمهم ولا ينظرون الى مصالحهم الخاصة بقدر ما يعملون لصالح الآخرين وهم دائما يعادون من الحكام ويختلف الناس فى شأنهم بين مادم وقادم وتقدر مبادئهم من قوم وتكر من آخرين ، وبعد ذهابهم تندثر مبادئهم او تحور ويختلف الاتباع فى مغزاها وتفسيرها ، ولكن بالمزيد من طغيان الظلم يتذكر الناس هؤلاء المصلحين ويبكون ايامهم . وقد حرص المؤلف على ابراز هذه الناحية فى حياة المصلحين الذين ذكرهم .



## تقريب

(١) رواية أولاد حارتنا نشرت في جريدة الأهرام في أوائل سنة ١٩٦٠ ، ثم أخرجت في مجلد فصودرت ، صادرها الأزهر ، ويرى صاحب الرواية الأستاذ نجيب محفوظ : أن المباحث العلمية هي التي قدمتها للأزهر وطلبت أن يصادرها ، هذا لأن الأزهريين — فيما يذكر ويرى الأستاذ نجيب محفوظ — لا يقرأون هذا اللون من الأدب القصصي ، وأذكر أنني حاورته في هذا فأصر على ما يرى ، ومهما يكن من أمر مصادرتها فقد نشرت ، نشرتها إحدى صحف اليسار ، ومن قبل نشرها في الصحف المصرية طبعت في بيروت وتسربت إلى مصر وبيعت بثمن غال ، وقرأها من يعينهم أن يقرأوها ، وشاعت بين الناس إلى حد غير قليل وهذا ما شجعني على الكتابة عنها .

(٢) كتابتي عن هذه الرواية هي حل لرموزها ، ومقابلة بين ما جاء فيها وما جاء عن أحداثها في كتب التاريخ والأديان ، ومما سبق نجد أن موضوع الرواية كلها يتركز على رسالات الأنبياء الكبار ، وهي في عرض حوادثها تحتذى سيرهم وجهادهم ومواقفهم بين الناس وأمام الحكام ، وقد خفت صوت هذه الرسائل ونسى الناس أو

أعرضوا عن هذه الدعوات أمام التقدم العلمى الحديث حتى أعرضوا عن الله نفسه ، وهذا ما عبر عنه المؤلف بموت الجبلاوى ، ولم يمت العلم ويصبح أحاديث وروايات كما حدث للرسالات ، بل بقى فى الكراسة التى تحوى أسرار السحر ورموزه ، وقد حصل عليها .. «حنش» تابع عرفة مما جعل الناظر فى رعب وتوقع لسطوة عليه وهجوم جديد ، وقد فسرت بعض الرموز فى الرواية كما بدت لى ، ويوم أن قابلت الأستاذ نجيب وحادثته فى شأن هذه الرواية لم أكن على تذكر جيد لأحداثها ، فهى لم تكن عندى ، وكل ما كان لدى منها هو بقايا مما كنت أقرأه منها حين كانت تنشر فى جريدة الأهرام ، وهناك أحداث كثيرة أضافها وليس لها نظير فى الكتب القديمة ، ولم تحضر فى حوارنا ، ولكن بدا لى منها أنه يريد تأكيد الصورة المصرية بإدخال هذه الأحداث ، وهى أخلاق شعبية مصرية .

(٣) قلنا من قبل أن الرواية صودرت . فما الذى دعا إلى مصادرتها ؟ وما الذى أثار الغضبة منها ؟

أول شيء هو شخصية الجبلاوى ، فقد خلع عليها المؤلف صفات الذات العلية ، وهذا ظاهر جدا من حادث تولية أدهم نظارة الوقف وأمر الآخرين بطاعته فاذعنوا وأطاعوا عدا إدريس الذى يمثل موقف إبليس ، فهذا ما تقوله الآية الكريمة : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » وهذا الإباء مذكور فى غير سورة من القرآن .

وهو ظاهر أيضا فى احتجاب الجبلاوى فى قصره ولا يراه أحد ولا يكلم أحدا ، ثم نجد فى أثناء الرواية ما يؤيد هذا التشبيه كل مظلوم ، وكل ضائق من شيء يصيح .. يا «جبلاوى» — والمظلمون والضائقون عادة يصيحون « يارب » — ثم تقول الرواية : إن الجبلاوى وهو فى حجرته يعلم كل شيء فى الحارة ، ونحن نقول : لا يعلم الغيب إلا الله ، كذلك نجده يخاطب « جبل » و « رفاعة » وهما لا



يربانه ، أما قاسم فظهر له وكلمه « قنديل » .. وهو يقابل شخصية جبريل . وجاء في القرآن الكريم عن موسى حين سار بأهله وأنس من جانب الطور نارا فلما آتاها « نودى يا موسى إني أنا ربك » - « يا موسى إني أنا الله رب العالمين » - « إني أنا الله لا إله إلا أنا » - إلى آيات أخرى مثل هذه الآيات ، والرواية تذكر أن « جبل » وهو في الظلام القاتم في الصحراء سمع هذا الخطاب من الجبلاوى ولم يره ، كذلك رفاعة سمع نداء الجبلاوى يجرضه على الجهاد وعلى الدعوة للإصلاح وإشاعة الرحمة والاخاء ، وجاء في القرآن الكريم : « إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس » ، « يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذى كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا ... »

وهكذا كما أوحى الله إلى أنبيائه ولم يروه سمع هؤلاء كلام الجبلاوى ولم يروه .

وحين جاء عهد العلم الحديث - عهد السحر في الرواية - نجد عبارات كثيرة ضد الجبلاوى كما نجد عند العلمانيين انكار الله : ماذا فعل لنا الجبلاوى ، هل رآه أحد ، لم يره جبل ولم يره رفاعة . وهكذا نجد الجبلاوى شخصية تلبس صفات الذات العلية .

(٤) قال الأستاذ نجيب : إنه لا يتحدث عن الله - تعالى - ولا عن الكون ، وإنما يصف حارة شعبية ، بها رجل مقدر له في الحارة وقف وله نظار ، وقد جاء في أول الرواية : إن الرجل كبير ويريد أحد أبنائه أن يتولى هذه النظارة !

هذا كلامه .

ولكن أى رجل يعمر كل هذه السنين !! توالى على الحارة نظار وفتوات ومصلحون ، وهو حى لم يمت إلا بعد مئات السنين ، ثم هو

حتى بعد موته لم يره أحد ، دفن في حديقة قصره ، من يا ترى تول  
تجهيزه وغسله وتكفينه !!!

(٥) والمصلحون الذين ذكرتهم الرواية ، خلعت على كل واحد  
منهم صفات وأعمال النبي الذي يمثلها ، فجبل قام بأعمال كأعمال  
موسى ، ورفاعة لبس صفات المسيح ، كان نجارا واعتكف في الخلاء  
وفوق الجبل ودعا إلى ما دعا إليه المسيح عليه السلام — من الرحمة  
والإخاء ، وقاسم مثل سيرة النبي محمد — ﷺ — يتيم رعى الغنم  
وتزوج من سيدة شريفة ثرية ، وحارب ، وتزوج عددا من النسوة ثم  
نجد الرواية تذكر خلافة الصديق واختلاف الصحابة ودعوة بعضهم  
لتولية علي ونصرته ... الخ

أنتسع الحارة لهذا كله ؟ وتأتى المصادفة بكل هذا التوافق ؟  
(٦) من ناحية أخرى نجد صفات وأحداثا لا تناسب هذه  
الشخصيات . فالجبل لا يخرج من القصر أحيانا ، وقد استدعى  
«همام» وخرج ليأتى به إلى القصر .

هل هذا رمز للرضا عنه ؟ إن الرضا جاء صريحا فلا حاجة إلى  
الرمز ، كذلك هؤلاء الأنبياء جاء لكل واحد منهم صفات وأعمال  
تخالف المأثور عنه ، فموسى — كما رأينا — لم يلق في اليم ، ولم يقابل  
السحرة أو يتحداهم .... ورفاعة له أب نجار ، وقاسم شريب سكير ،  
بل ثلاثهم يشربون .

ترى هل تغير هذه الصفات شيئا من شخصيات اتسمت بكل ما  
لهم من أعمال وصفات ، حتى أمانة قاسم واعطاؤه النساء حقوقهن  
وإكبار الناس صفاته النبيلة .

هذه الصفات البارزة من أعمال هؤلاء الأنبياء لا يخفيها ما جاء  
لهم من صفات شعبية .

(٧) هذه انطباعاتنا عن هذه الرواية الكبيرة الضخمة ، وهي مليئة بالصور والمناظر الشعبية ، ولا مغزى لها إلا أنها تصور شعبا فقيرا يمتنن المهن الحقة ، وجبابرة أقوياء يستهينون به ويسخرونه لما يريدون وينهبون أملاكه وأمواله ، والشعب يصبو لإصلاحات المصلحين ولكنها لا تدوم ولا تلبث إلا قليلا ، وتحت ضغط المعادين للمصلحين وجبروتهم يضطر الناس إلى شتم المصلحين الذين جاءوا لإنقاذهم .

هذه الصورة ليست مجرد صورة شعبية ولكنها تمثل حال مصر في مختلف العصور ، بل وحال الناس في أمكنة وظروف شتى مختلفة .

(٨) وسلاح العلم الحديث يقوده غرور لا يحد ، إنه يخيل إليه أنه يعمل المستحيل ، أو يستطيع أن يعمل ، ويتمثل هذا في الرواية في أمل عرفة أنه سيصل يوما إلى إحياء الموتى ، ولكن الله سبحانه راض عن العلم وعن العلماء ، ويشير إلى هذا خادمة الجبلوى العجوز التي جاءت إلى عرفة لتخبره أن الجبلوى مات وهو راض عنه .

(٩) ترى صادفت التأويلات التي سبقت مراد الكاتب ، أم هي مجرد تخمينات ، وددت لو أن لدى طاقة من الجهد ومتسعا من الوقت لأقابل الأستاذ نجيب وأعرض عليه هذه الملاحظات ، وأذكر أن الحسن بن هانئ الشاعر المشهور يكتبه « أبو نواس » مر بمعلم يشرح إبتلا ميمنه قول أبى نواس :

ألا فاسقنى خمرا وقل لى هى الخمر .

فقال المعلم : إن الشاعر أراد أن يتمتع حواسه كلها بالخمر ، وهو قد ذاقها وشمها ورآها فأراد أن يتمتع سمعه بذكر اسمها ، فتبسم أبو نواس وقال : ما خطر هذا لى ببال . !!

ولعل لا أكون قولت الكاتب ما لم يقل وأردت له ما لم يخطر له ببال .

(١٠) وأخيرا يأتي السؤال الواضح القريب : هل يجوز إذا غيرنا أسماء بعض الأشخاص والأماكن أن نعرض سيرهم وأعمالهم حسبما نرى ؟ هل يجوز إذا سمينا الأنبياء الكبار بجبل ورفاعة وقاسم وسمينا الله باسم الجبلأوى أن نعرضهم هذا العرض ، وهو كما رأينا من قبل لا يخلو من سخرية أو إهانة .

للإجابة على هذا السؤال أقدم سؤالاً آخر ، ماذا يحدث لو سميت ملكة إنجلترا بغير اسمها ، ووصفتها ووصفت زواج ابنها ولى العهد أو أباه بصفات لا تناسبهم ؟ أيرضى الانجليز عن هذا أم يفضبون ؟ وهل تقبل الملكة اليزابيث الثانية أن أسميها موهانا أو بامبلا أو مارجريت أو غير ذلك من الأسماء ثم أعرض صور تقلدها العرش بعد أبيها وزيارتها فرنسا حين كان بها عمها وزيارتها له ، وشربهما وسكرهما أو عملهما عملا لا يناسب كرامة ملكة إنجلترا ؟ وماذا يحدث لو أننا فعلنا ذلك لائى ملك أو رئيس جمهورية أو حتى محافظ إقليم ؟

هذا ما يقوله الذين طلبوا مصادرة الرواية .

ويعرض الآن فيلم المهاجر ، وقصته تمثل شخصية يوسف الصديق - عليه السلام - وقد احتج عليها الكثيرون ، ولها الآن قضية تنظرها محكمة رسمية ، ولا ندري ماذا سيكون قرارها .

ويقال إن رواية « أولاد حارتنا » بصد أن تكون مسرحية تعرض في التلفزيون ، وخول هذا أكد نجيب محفوظ أنه لم يصرح بذلك .

وقد نشرت جريدة الأهرام في يوم ١١/٥/١٩٩٤ حديثا عن الرواية وعن مؤلفها ، وجاء فيه أنه مازال على رأيه الذى أعلنه عقب فوزه بجائزة نوبل سنة ١٩٨٨ ، وهو عدم النشر إلا بعد موافقة « الأهرام » أو عدم اعتراضه وهو ملتزم مع « الأهرام » على تولى نشر الرواية .

وفي الصفحة نفسها خبر يقول : إن المثقفين المصريين أصدروا بياناً وقّعه أكثر من ٥٠٠ من الكتاب والمثقفين والمفكرين والفنانين والاعلاميين ، ويقع في ١٧ صفحة ، وقد استنكروا فيه نشر الرواية دون إذن منه بذلك وضد رغبته ، لأن هذا النشر عدوان صارخ على حق المؤلف .. ورحب الأديب الكبير ببيان المثقفين المصريين ، وأبدى استيائه من نشر الرواية ، وأكد أن النشر تم بدون موافقة منه .

وخلاصة ذلك كله أنه لم يأذن بنشر الرواية وأن هذا النشر يتوقف على الموافقة الأزهر أو عدم اعتراضه .



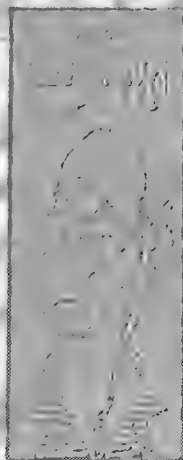
ابن حارثنا

نجيب

موقوف

بسم الله الرحمن الرحيم

د. سمير سرخان







تلك المدينة التي غرسها أحد المجرمين في رقبة نجيب محفوظ  
فأسال منه الدماء الغزيرة إنما غرسها في قلب الوطن . ويشاء الله العلى  
القدير أن يجرح هذا القلب الكبير ولا يتوقف .. وإنما يعود لينبض  
بالحياة ، ويعود صاحبه ليطلق الضحكات رغم المفاجأة ورغم الألم ..  
وكان هذا الحدث الجلل قد عبر أبلغ تعبير عن استمرارية هذا الوطن  
بحضارته العريقة وبوعيه المتفتح نحو العقلانية والتقدم والحرية ،  
بالرغم من أفاعى الظلام التي تنفث سمها خسيسا حقيرا لتلدغه لدغة  
الخيانة حتى تدمر كل ما هو جميل وحقيقى في حياتنا .. ثم تطلق  
سيقانها للريح ؛

ليس نجيب محفوظ مجرد روائى كبير استطاع في خلال عمله  
الدءوب على مدى خمسين عاما أن يرسم بريشة إبداعه العظيم  
خريطة هائلة للمجتمع المصرى المعاصر في مراحل تطوره الاجتماعى  
المختلفة ، وبمناجحه البشرية الفريدة ، وبالحارة المصرية التى تمثل  
عنده مصغرا للعالم ، وبالصراعات والتناقضات الفكرية والنفسية  
والسياسية والوجودية التى اكتنفت مسيرة هذا المجتمع على مدى  
جيلين ، فاستحق بذلك أن يتربع على عرش الرواية العربية ، وأن  
يخرج بها من خلال خصوصيتها الثقافية ومحليتها الشديدة إلى

نطاق العالمية ، فيحصل بها للأدب العربى — لا لنفسه فقط — على جائزة نوبل ، ويضع هذا الأدب على خريطة الإسهام الإنسانى والإبداع الرافى المتكامل بعد أن كانت الرواية العربية — فى نظر بعض المستشرقين — مجرد وثائق اجتماعية تزود الباحث الغربى بمعلومات عن العادات والتقاليد الغربية للمجتمع الشرقى !

لا .. وليس نجيب محفوظ مجرد مبدع استطاع أن ينقل فن الرواية العربية من مرحلة المقامات أو الحكاية أو الحدوتة أو الثثرة الرومانسية ، إلى مرحلة البناء الروائى المحكم والمتكامل الأركان سواء فى مجال الرواية الاجتماعية التى ترصد حركة المجتمع من خلال مصغر المكان (وغالبا ما يكون هذا المكان حارة أو حيا شعبيا مثل الحسين أو الجمالية) ، أو فى مجال الرواية التى يختلط فيها الواقع بالرمز ويصبح البطل فيها هو العالم الداخلى للشخصية بكل نوازعها الداخلية المتناقضة ومحاولتها الاتحاد بعناصر الكون الأكثر شمولا وشفافية من الواقع المعاش .

وليس نجيب محفوظ مجرد قيمة عليا من قيم العمل الدءوب المخلص من أجل أن يرسى قواعد فن من الفنون الجميلة هو فن الرواية ، ومن أجل أن يرسخ جذور هذا الفن القادم من الغرب فى تربة الأدب العربى الذى يعتبر الشعر هو عموده الأول ، وهو الأدب الذى لم يعرف فن السرد الفنى إلا فى مقامات الحريرى وبعدها فى محاولات المويلحى وعمله الرائد «عيسى بن هشام» أو رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل ، ثم عودة الروح لتوفيق الحكيم .. وكلها أعمال قد تقترب من فن الرواية ولكنها لا تمنحه التحقق الكامل .

وليس نجيب محفوظ بشموخه الفنى واتصال إبداعه فى الزمان ، وتواجهه المتوهج على الساحة الأدبية على مدى نصف قرن مجرد أديب كبير يستحق بجدارة لقب أبى الرواية العربية ، ومؤسس

الرواية العربية الحديثة الذى خرج من معطفه عشرات ، بل مئات ،  
الروائيين من الأجيال التى تلت ذلك فصنعوا به ومعهم مجد الرواية  
العربية المعاصرة ، تماما كما خرج الأدب الروسى الحديث من معطف  
جوجل كما يقولون .

وليس نجيب محفوظ فقط هو ذلك الرائد الذى سار بالرواية  
الواقعية إلى آفاق أبعد وأشمل فى تطوره الفنى على مدى سنوات إبداعه  
الطويل ، فهو قد خرج من الإطار الاجتماعى الواقعى بعد «الثلاثية»  
ليجوب آفاقا أرحب على مستوى التجريب فى الشكل الروائى  
والتجريب فى الموضوع الروائى فى الوقت ذاته .. فمزج الواقع بالرمز  
واتخذ من الخلفية الاجتماعية إطارا رمزيا للوصول إلى المعانى الكلية  
التي لا تقتصر على واقع اجتماعى بغيثه أو ظروف زمانية بعينها ،  
فكانه أراد بذلك أن يسبح فى المطلق متخذًا الواقع كنقطة انطلاق  
لا ارتكاز ، فيصبح الواقع فى رواياته الرمزية كالقاعدة التى ينفصل  
عنها الصاروخ ليسبح بعد ذلك فى الفضاء الرحب ، ويلامس المعانى  
الكبرى التى تلهينا حياة الأرض عن إدراكها بسبب صراع الحياة  
اليومى .

لا وليس نجيب محفوظ مجرد شجرة وارفة أظلت بظلها الرحيب  
وبحضورها المتوهج بستان الأدب العربى على مدى سنوات طويلة  
من عمر الزمان المصرى والعربى وستظل كذلك ما بقيت الكلمة  
أساسا لوعى الإنسان وتقدمه وصراعه مع الحياة أو احتفاله لها .. ولا  
هو مجرد موقف مع الحرية والتقدم والتفكير العلمى والتنوير وكل  
القيم العقلانية والفكرية التى أرسى دعائم تقدم المجتمع المصرى منذ  
عصر محمد على حتى الآن ، وهى قيم ترفض العودة بمكتسبات  
الثقافة المصرية إلى الوراء ليعود المجتمع إلى عصور الظلام المملوكية ،  
لا عصور الصحوة الحضارية ، بعد أن يتم إغراقه فى مآتات الجهل

والخرافة والشكلائية والروح القبلية وتكفير الآخرين . فالموقف  
الفكرى الثابت لنجيب محفوظ - مهما تنوعت آراؤه السياسية أحيانا -  
هو مع التقدم والعقلانية والحرية وحق الخلاف في الرأى مع التمسك  
بمنظومة المثل العليا التى تحكم حياة الفرد وحياة المجتمع معا على  
رأسها الدين .

وهذا الموقف يتناقض تماما مع سوء الفهم الذى صاحب روايته  
العظيمة «أولاد حارتنا» منذ البداية حين رفع أحد الشيوخ تقريرا إلى  
السلطات العليا يحرض هذه السلطات على مصادرة الرواية بدعوى  
خروجها عن الدين عام ١٩٧٧ . ومنذ ذلك التاريخ والرواية تقف فى  
قفص الاتهام دون أن يقرأها أحد .. ودون أن يسعى أحد إلى تحرى  
الحقيقة .. ومن المؤكد فعلا أن أحدا لم يقرأ الرواية لا قراءة متعجلة  
ولا قراءة متأنية سوى صفوة الصفوة من النقاد أو محبى أدب نجيب  
محفوظ .. وبما أننا بلد يهوى تناقل الإشاعات دون التحرى عن  
مصدرها أو حقيقتها ، فقد سرت الإشاعة مسرى النار فى الهشيم أن  
«أولاد حارتنا» رواية معادية للدين ، حتى وصل الأمر إلى ذلك  
الصبى الغرير ذى العشرين ربيعا الذى انحنى ذات يوم على رقبة  
نجيب محفوظ فى الساعة الخامسة من ذلك اليوم الأسود ليطعنه  
طعنة نجلاء ويطعن معه قلب الوطن دون أن يقرأ حرفا من «أولاد  
حارتنا» ودون أن يعرف حتى إن كانت رواية أو مسرحية أو قصيدة  
شعر !

ويشاء الله أن هذه الطعنة الغادرة تكسب الكاتب العظيم قوة وتهبه  
فى الحياة استمرارا وقدرة ، ويشاء الله أن الصرخة المكتومة التى  
أطلقها الكاتب وهو فى قمة الألم فى وجه الإرهاب تصبح صرخة مدوية  
يتردد صداها فى جنبات الوطن .. وإذا الكل يستيقظ إلى حقيقة ما  
يجرى لهذا الوطن .. وإلى حقيقة «أولاد حارتنا» !

وما أنت وحدك

يا أيها الشاهق الفذ تخترق الظلمة الدامسة عاريا ،  
ناحلا ،

لا تنوء بما حملت كتفاك

ولا تشتكى لعصاك

من الطعنات الخسيسة والأوجه الفظة العابسة بل تجود  
على الطرقات بما عتق الدهر والفكر من طيبات دماك تدق  
بها فوق أبوابنا المغلقات  
لنصحو في الساعة الخامسة !

(أحمد عبدالمعطي حجازي)

رواية أولاد حارتنا « أمثولة رمزية، Parable وهذا هو أحد  
الأسباب الرئيسية التي تسببت في سوء فهمها .. والحكم عليها لا  
بمقاييس الفن وإنما بمقاييس أخرى غير فنية هي مقاييس المقال أو  
الرأى الفلسفى أو حتى السياسى بمقياس التكفير الدينى .. والرواية  
ببساطة شديدة - كما هى الخال في عالم نجيب محفوظ الروائى -  
تتخذ من الواقع وسيلة لتصوير ما وراء الواقع .. أى منظومة النظم  
والقوانين العليا التى تحكم حياة الإنسان وأهمها الخير والشر ..  
والصراع بينهما .

كما يتخذ أيضا شأنها شأن عدد كبير من رواياته الاجتماعية - من  
الحارة المصرية مصغرا للعالم .. وإذا كانت الحارة هى التجسيد  
اليواقعى للعالم كما يراه نجيب محفوظ ، فإن دلالاتها تتسع لتشمل  
الكون كله .. وهو الكون الذى لا يقتصر إدراكه على التفاصيل الواقعية  
للمعيشة اليومية وإنما يمتد ليشتمل على منظومة القيم والمدرجات  
المتنافيزيقية التى تحكم مصير الإنسان في هذا العالم .

وإذا كانت الحارة هى مصغر للعالم .. وإذا كانت مسيرة البشرية فى هذا العالم توازى - روائيا - تاريخ هذه الحارة وصراعاتها وتقلباتها ، فإن الدين فى « أولاد حارتنا » هو الحقيقة الأولى والجوهرية التى تحكم مسيرة الحضارة الانسانية كما تحكم الحياة داخل هذه الحارة الرمزية .. وفيها يستحضر نجيب محفوظ الأشكال الأساسية للدين أى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام وهى جميعا عنده ترمز إلى فكرة الدين السماوى خصوصا دون الحاجة إلى الخوض فى تفاصيل كل دين على حدة أو مقارنة دين بآخر ، فالذى يهمه هنا هو أن يرد فكرة الصراع بين الخير والشر إلى منبعها الأساسى فى جوهر حياة البشرية وهو القيم الدينية التى لا غنى عنها للوصول إلى حالة من الخير الخالص - هو الأصل فى التكوين البشرى بل وربما الأصل فى جالة الكون ذاته قبل خطيئة آدم - فى مقابل الشر الخالص الذى يتمثل فى الرمز الابليسى الذى ينطوى على عصيان الرب ، ومنذ أن عصى إبليس أمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام ، أصبح اسمه قرينا بالشر وأصبح العالم ذاته مكانا يختلط فيه الخير بالشر ، وهكذا أيضا الحال مع أولاد حارتنا عند نجيب محفوظ .

فالحياة فى هذه الحارة الرمزية تنطوى على جدلية الخير والشر التى تحكم الحياة ذاتها منذ أن رفض إبليس السجود لآدم وعصى أمر ربه ، فكف الكون عن أن يكون خيرا خالصا ، وانتفت عنه حالة الطهر الخالص المصاحب لفكرة الفردوس .. وما يعنى نجيب محفوظ فى الأساس فى معالجته الروائية لحالة الكون فى أولاد حارتنا هو بيان الخير والشر وإرجاع الصراع بينهما إلى أصوله الحضارية بدءا من الحالة الفطرية الأولى التى كان عليها الانسان عند بدء الخليقة وانتهاء بإنجازات العلم الحديث عبورا بدعوات الرسل والأنبياء .

هذا هو المعنى الرمزى والجوهرى فى معالجة نجيب محفوظ للحياة فى « أولاد حارتنا » أما الحارة نفسها فهى تموج كما تموج

الحياة ذاتها بالنماذج الانسانية التى تتصارع وتتعايش من خلال فكرة « واقعية » هى محاولة إعادة توزيع ريع « الوقف » الموجود فى الحارة على سكانها بالعدل والقسطاس ، ذلك الوقف الذى كان « الجبلاوى » المتسلط قد حجه عن الجميع .

ويقع الخطأ الأساسى فى التأويل المعادى للرواية - والذى أدى إلى مأساة محاولة ذبح المؤلف على قارعة الطريق فى الساعة الخامسة - فى تفسير شخصية الجبلاوى نفسه .. فهواة هذا التفسير الخاطئ يخلعون على الجبلاوى بعض صفات الألوهية .. لكن القارئ المتأمل للرواية يستبعد تماما اقتراب شخصية الجبلاوى من دائرة التأليه . فهو دائما يقسم بالله .. أى أنه ذات بشرية يعود دائما فى حاله الأزمة أو القرار إلى القسم بالذات العليا .. والتأويل المعادى للرواية والتى يتهمها بأنها ضد الدين ، يوازى عمدا بين شخصيات « جبل » و « رفاعة » و « قاسم » وبين رسل الله فى الأديان الثلاثة .. ولكن المتأمل للرواية ولتركيب النفسى والشخصى لهذه الشخصيات الثلاث يدرك أن كلا منهم يلعب دور المصلح الاجتماعى دون أن يجاوز حد البشرية أو يتطاول على التشبه بالأنبياء .. فجبل يرمز إلى القوة التى بغيرها لا يسود العدل ، ورفاعة يرمز إلى فضيلة الرحمة ويروج لها بين أبناء الحارة ، وبين القوة والرحمة يتردد القسم بالله الواحد الأحد وطلب العفو منه ، أما قاسم فيأتى قويا ومتسامحا فى نفس الوقت مستعينا بالله صاحب النصر .. وعندما ينتصر يخاطبه صاحبه صادق قائلا : « نصرك الله » ، ولما خلفه على الوقف جعله قاسم للجميع وأعاد ترتيب الأوضاع فى الحارة « بفضل الله » فالله وحده هو من ينعم ويرحم ، فالثلاثة هم من المصلحين الاجتماعيين ولكل منهم نظريته إلى كيفية تحقيق العدل فى الحارة ، وثلاثتهم بلا استثناء يتميزون بالضعف البشرى فهم يبيعون ويشتررون وينغمسون أحيانا فى تفاهات الحياة وملذاتها وهم يرتادون يؤر

المخدرات بين المنازل القذرة حيث بائعات الهوى والأسر المطحونة ،  
فالخير والشر فيهم والقوة والضعف فيهم ، غير أنهم تميزوا عن بقية  
«أولاد حارتنا» بهذه الشهوة العارمة للإصلاح الاجتماعي .

إن «أولاد حارتنا» هم خليط من النماذج الانسانية يهدف نجيب  
محفوظ من تقديمهم — في نهاية الأمر — إلى تأكيد قيم العدالة  
الاجتماعية والمحبة والكرامة والتقدم وكلها من القيم التي حرصت  
على تأكيدها جميع الأديان السماوية .

هذا هو الموقف الحقيقي لنجيب محفوظ ابن حارتنا .

وهذا هو العالم الحقيقي لهذه الحارة الكونية .. عالم يؤكد على  
ضرورة التمسك بالقيم العليا للدين ..

وأن يتوسل بالعقل والعلم للوصول إلى اليقين !

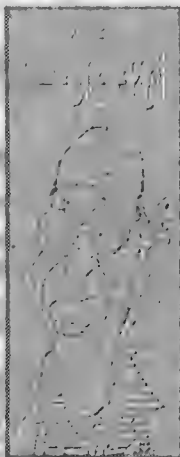
د . سمير سرحان



# أولاد حارتنا

بين  
خصوصيتها المصرية  
وعُموميتها الانسانية

محمود أمين العالم





قد يكون من من التعسف أن نقول عن أدب نجيب محفوظ إنه يتنامى منذ بدايته حتى اليوم في إطار نسق واحد لا يتغير ، سواء من حيث جمالياته التعبيرية أو دلالاته الاجتماعية والفلسفية . فلا شك أن هناك تنويعات وتغييرات واختلافات وتطويرات لا تتمثل فحسب في المراحل المختلفة المتجددة لإبداعه الروائي ، بل أحيانا داخل المرحلة الواحدة . على أن هذا لا ينفي وجود بعض الثوابت الأساسية في هذه المراحل جميعا ، التي تسهم — مع عناصر وسمات أخرى — في إضفاء وحدة نسقية عامة على أدب نجيب محفوظ . فهناك نسق عام لأدبه كله ، ولكنه نسق يتدفق بأمواج متتابعة متجددة متنوعة متراوحة مختلفة من الرؤى والأبعاد والأعماق والتوجيهات والمواقف بشأن الحياة الإنسانية نفسها .

ولهذا أكاد أقول : إنه لم يكن أمرا عابرا أو من قبيل المصادفة — وإن تكن للمصادفة دلالة موضوعية ضرورية في أدب نجيب محفوظ — أن يبدأ نشاطه الثقافي والإبداعي بترجمة كتاب أنجليزى عن مصر القديمة الفرعونية ، وهو ما يزال طالبا في المدرسة الثانوية ، ثم يكتب بعد ذلك ثلاث روايات مستلهمة من التاريخ المصرى القديم هي «عبث الأقدار» و «رادوبيس» و «كفاح طيبة» يؤرخ بها لوطنه — على حد تعبيره — «في صيغة روائية» . بل أكاد أقول إن هذه البداية المبكرة

للتعرف على تاريخ مصر ، وصياغته روائيا ، هي سمة أساسية وثابت جوهرى فى أدب نجيب محفوظ كله منذ البداية حتى اليوم . ولست أقصد بتاريخ مصر هنا ، تاريخها السياسى ، وإن يكن هذا التاريخ السياسى بعدا من أبعاد عالم نجيب محفوظ الروائى . ولست أقصد به اختيار أحداث مصرية ، أو شخصيات مصرية ، فى هذه الرواية أو تلك ، كما يفعل العديد من الروائيين المصريين ، وإنما أقصد الهم المصرى الشامل ، الكيان المصرى ، الهوية المصرية ، الحقيقة المصرية ، المزاج المصرى ، الروح المصرية ، المسألة المصرية ، الطريق المصرى لى تكون مصر وتتحقق مصريتها ، ولكى تصير مصر وتتحرك وتتقدم . ولهذا فهو فى مشروعه الإبداعى المتنامى لا يؤرخ لمصر تاريخا سياسيا ، بل يؤرخ تاريخا عميقا ، يجمع بين الاتجاهات السياسية والأوضاع والمواقف الاجتماعية ، والشعبية والأذواق الأدبية والفنية ، والقيم الأخلاقية والملامح الموضوعية والذاتية المختلفة الفردية منها والمجتمعية ، فى تفاعلها وتنويعاتها ، فى ثوابتها ومتغيراتها ، فى تناقضاتها وتوافقاتها . وهو لا يعبر عن هذا تعبيرا روائيا وصفيا ، بل تعبيرا صراعيا من ناحية ، وتعبيرا تقييميا توجيهيا من ناحية أخرى ، وإن لم يفصح عن هذا الجانب التقييمى التوجيهى بشكل جهرى فى بنيته الروائية الفنية . بهذا الوعى الشامل كانت مصر منذ البداية وماتزال حتى اليوم ، هى همه الأول والأكبر والأساسى ؛ وبفضل هذا الهم كتب وأبدع وكان إبداعه شاهدا مسئولاً عن حقيقةنا المصرية خاصة وعن العصر كله عامة ، وبسبب هذا الإبداع المخلص المتفانى الجسور النبيل كاد أن يكون شهيدا .

على أنه مهما اتسعت وتعمقت وتنوعت أبعاد مصريته الروائية ، أو روائيته المصرية ، فقلد كان هناك دائما ومايزال محور أساسى تكاد تدور حوله أغلب تساؤلاته فى تجسيدها الروائى الفنى ، هذا المحور - فى تقديرى - هو محور السلطة ببعديها : البعد السياسى العملى ، والبعد الإيديولوجى والقيمى ، أو بتعبير آخر : طبيعة السلطة الحاكمة

المتحكمة في مصر ، وطبيعة الفلسفة والقيم السائدة في إطار هذه السلطة ، وما يواجهها من صراعات وفلسفات وقيم أخرى .

وفي رواياته الثلاث الأولى التي أشرنا إليها من قبل يكاد يركز على الطبيعة الاستبدادية للحكم ، فضلا عن إرادة التغيير والتحرير .

ففى «عبث الأقدار» تتحول السلطة من سلطة بالوراثة إلى سلطة بالعمل ، وفي «رادوبيس» يثور الكهنة على سلطة الفرعون الخارج على القيم ، وفي «كفاح طيبة» يصل أحْمَس إلى السلطة بمكتشفاته وانتصاراته . وتكاد هذه الروايات الثلاث رغم مادتها التي تنتسب إلى تاريخ مصرى قديم ، أن تشير إشارات رمزية واضحة إلى واقع السلطة في مصر أثناء الحكم الملكى المستبد والفاسد ، فضلا عن الاحتلال البريطانى المسيطر فى الثلاثينيات والأربعينيات .

على أن نجيب محفوظ سرعان ما ينتقل من هذه المرحلة الروائية الأولى التى تستوحى تاريخ مصر القديمة ، إلى المجتمع المصرى الراهن نفسه فى أكثر أحيائه الشعبية التى هى كما يقول فى مدخل رواية «أولاد حارتنا» : أصل مصر أم الدنيا . وتبدأ هذه المرحلة برواية «القاهرة الجديدة» وتنتهى برواية «السكرية» أى بالجزء الثالث والآخر من «الثلاثية» مروراً برواية «خان الخليل» فرواية «زقاق المدق» ، فرواية «السراب» ، فرواية «بداية ونهاية» وأخيراً الثلاثية بأجزائها «بين القصرين» و «قصر الشوق» و «السكرية» .

وقد لا تبرز قضية السلطة بمعناها السياسى أو المعنوى والقيمى فى هذه الروايات بشكل مباشر ، إلا أننا نستشعر قضية السلطة فى تجلياتها المختلفة : الأبوية ، والاجتماعية ، والثقافية والأخلاقية والجمالية فضلا عن السياسية . ففى مجمل هذه الروايات تبرز الصراعات وتحتدم بين هذه الأشكال المتنوعة من التجليات السلطوية ، فى ملامحها الفردية والنفسية والفئوية والطبقية والجماعية والسلوكية والقيمية والإيديولوجية المختلفة . ولعل «الثلاثية» أن

تكون الملحة الشاملة التي تجمع كل العناصر والسمات الأساسية في الروايات السابقة عليها منذ «القاهرة الجديدة» وتعبّر عن رؤية فنية باللغة الرفعة والعمق والحيوية لما كان يحتدم به تاريخ مصر من صراعات وتناقضات ونضالات وتوجيهات وتطلعات سياسية ووطنية واجتماعية وثقافية منذ بدايات القرن العشرين حتى عام ١٩٤٤ . فأحداث «بين القصرين» تقع بين عام ١٩١٧ وعام ١٩١٩ ، و«قصر الشوق» بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٢٧ و «السكرية» بين عام ١٩٣٥ وعام ١٩٤٤ .

وفي هذا الجزء الثالث والأخير من «الثلاثية» ، نستشعر الغليان الفكري والمخاض الاجتماعي بحثاً عن مخرج ، عن طريق يتجاوز محنة الاحتلال البريطاني الذي كان لا يزال فوق أرض مصر وحياتها ، فضلاً عن الملكية المستبدة الفاسدة والتخلف الاجتماعي السائد .

لقد انتهى نجيب محفوظ من كتابة «ثلاثية» مع انفجار ثورة يوليو ١٩٥٢ ، رغم أن «الثلاثية» تقف بأحداثها عند عام ١٩٤٤ . وكان نجيب محفوظ يستعد لمواصلة أشكّمال صرخه الروائي المصري مستلهما استلهاما إبداعيا للواقع المصري في مرحلة ما قبل قيام هذه الثورة . وكانت في جعبته جملة من المشروعات المقترحة . وجاءت ثورة يوليو فغيرت الخريطة السياسية والاجتماعية والإيديولوجية لتلك المرحلة .

لقد قامت سلطة جديدة ، وبدأت ملامح غامضة لم تتحدد بعد لخريطة جديدة . وكان من الطبيعي أن يتساءل نجيب محفوظ مع غيره من المثقفين والمفكرين عامة : هل هذه الثورة هي مجرد انقلاب علوي — كما أسماها كتاب صدر في ذلك الحين — لن يغير من طبيعة السلطة ، أو بنية المجتمع ؟ أم هي ثورة حقيقية ستعيد بناء السلطة والمجتمع بناء جديداً في مختلف جوانبه ؟ ولم تكن هذه التساؤلات مجرد تساؤلات نظرية ، بل راحت تبحث عن إجاباتها في أرض الواقع

## السياسى والاجتماعى .

ولهذا كان من الطبيعى أن يتوقف نجيب محفوظ المشحون بالهم المصرى ، لا عن مواصلة استكمال مشروعه السابق فحسب ، بل أن يتوقف تماما عن الكتابة . بل لعله قال آنذاك : لم يعد عندى ما يقال . بل قال : إن أدب المرحلة الجديدة بعد قيام هذه الثورة هو أدب الطبقة العاملة . بل قال إنه قد انتهى أدبيا .

وطوال سبع سنوات ، أى من عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٩ ، قامت ثورة يوليو بممارسة سلطتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى حققت العديد من الأحلام الوطنية والتقدمية التى كان يحلم بها نجيب محفوظ ، والتى تضمنت - بشكل أو بآخر - أعماله الروائية السابقة بعض ملامحها وبشارتها . إلا أن ثورة يوليو ، فى تحقيقها لهذه الأحلام ، لم تتصادم فقط مع أعدائها التقليديين من قوى استعمارية وصهيونية ورجعية عربية فى الخارج ، أو قوى استغلالية شبه إقطاعية أو رأسمالية فى الداخل ، وإنما تصادمت كذلك مع قوى سياسية واجتماعية وإيديولوجية ، كانت قد تحالفت معها فى البداية ، بل شاركت معها فى قيام الثورة ، مثل حركة الإخوان المسلمين ، وفصيل من فصائل الحركة الشيوعية المصرية . وكان من نتيجة هذا ، تصفية البنية السياسية الليبرالية التى كانت سائدة قبل الثورة ، وإلغاء الأحزاب وفرض نظام التنظيم السياسى الواحد ، وفضلا عن هذا ، فقد امتلأت السجون والمعتقلات فى بداية عام ١٩٥٩ بالشيوخ المصريين إلى جانب من كانوا بها من قبل ، فضلا عن أعضاء حركة الإخوان المسلمين الذين كانوا فى السجون كذلك منذ محاولة الاعتداء على جمال عبدالناصر عام ١٩٥٤ ..

ولهذا فبرغم ما حققته الثورة من إنجازات واتخذته من مواقف كانت من بعض أحلام نجيب محفوظ وأحلام المثقفين الوطنيين - والتقدميين عامة آنذاك ، إلا أن هذا الوضع السياسى المتببس -

وخاصة فيما يتعلق بالطابع العسكرى للسلطة الجديدة ، والموقف من الديمقراطية السياسية — قد فجر أزمة بين المثقفين والثورة ، عبر عنها محمد حسنين هيكل بعد ذلك عام ١٩٦١ فى كتابه «أزمة المثقفين» .

ولم يكن توقف نجيب محفوظ عن الكتابة منذ قيام الثورة عام ١٩٥٢ حتى أواخر الخمسينيات إلا تعبيرا — فى تقديرى — عن أزمة الكتابية الإبداعية فى مجتمع هذا الوضع الجديد الملتبس المتناقض بين شعاراته ومنجزاته السياسية والوطنية والاجتماعية المتقدمة ، وبين الشكل غير الديمقراطى فى الممارسة السياسية والاجتماعية .

فى هذا الإطار صدرت رواية «أولاد حارتنا» عام ١٩٥٩ . لعله بدأ كتابتها قبل ذلك بعامين أو بعام ونصف العام ، وبدأت جريدة الأهرام فى نشر الرواية مسلسلة يوميا ابتداء من يوم ٢١ سبتمبر عام ١٩٥٩ حتى يوم ٢٥/١٢/١٩٥٩ . وكان صدورها فى لحظة من أشد لحظات تاريخ ثورة يوليو تأزما . فمئات الشيوعيين والإخوان المسلمين فى السجون ، والمعركة على أشدها بين قيادة الثورة وبين من كانوا حلفاء لها بالأمس من قوى يسارية وشيوعية عربية ، فضلا عن الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية والحركات والتنظيمات الديمقراطية والتقدمية فى العالم أجمع .

وقد أغامر بالقول بأن نجيب محفوظ قد كتب روايته «أولاد حارتنا» كرد فعل نقدى أدبى إبداعى لهذا الواقع السياسى والاجتماعى والإيديولوجى الجديد الذى أخذت تسعى ثورة يوليو إلى تحقيقه . فهذا الواقع الجديد لم يكن قد تحددت ملامحه النهائية بعد ، وإن تحددت بعض ملامحه وخاصة فى هذه العلاقة الملتبسة والمتناقضة بين الشعارات والمنجزات المتقدمة لثورة يوليو ، وبين ممارساتها اللاديمقراطية من الناحية السياسية . وكان نجيب محفوظ قد انقطع عن مواصلة الموضوع الاجتماعى الذى كان شاغله ومادته التى يستلهمها فى إبداعه الأدبى السابق والذى جاءت ثورة



يوليو فخلخلت وغيرت من خريطته . ولهذا لم يكن يستطيع أن يكتب عن الواقع الجديد .— إذا أراد أن يكتب عنه — بعناصر مستلهمة من الواقع القديم ، وما كان هذا الواقع الجديد قد استقرت ملامحه النهائية حتى يتمكن من الكتابة عنه ، فضلا عن ان الطابع العسكري لسلطة الحكم الجديد وللوضع العام ما كان يتيح له التعبير الواقعي إذا أراد أن يعبر عنه . على أن نجيب محفوظ كان يريد أن يكتب ، وأن يعبر . وكان مازقا يعيش هذا الالتباس والتناقض بين الشعارات والممارسات . ولعله كان يشير إلى نفسه على لسان الرواية في افتتاحية «أولاد حارتنا» الذي يقول : «وما أكثر المناسبات التي تدعو إلى ترديد الحكايات . كلما ضاق أحد بحاله أو ناء بظلم أو سوء معاملة ، أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال بحسرة : «هذا بيت جدنا ، جميعنا من صلبه ، ونحن مستحقو أوقافه ، فلماذا نجوع وكيف نضام ؟!» ثم يأخذ في قص القصص والاستشهاد بسير أدهم و «جبل» ورفاعة و «قاسم» من أولاد حارتنا الأمجاد .

وكانت حال نجيب محفوظ في ظل الأوضاع الجديدة — كحال هذا الراوى الذى أصبح هو نفسه بعد ذلك — تدعوه إلى أن يحكى ، وتفرض عليه أن يحكى بالواقع الرمزي بدلا من الزمزم الواقعي الذى كان منهجه في السابق من رواياته . ولم يكن هناك أفضل وأسلم وأمن من تاريخ الرسل نموذجا جاهزا يتخذ من إطاره البنيوي العام ، ومن قيمه المثالية الرفيعة مادة ينسج بهما نقده للواقع السائد ورؤيته الفكرية والفنية التى يتطلع إلى تحقيقها في مصر ولمصر وربما للإنسان المعاصر حيثما كان .

لم يكن في الأمر إعادة كتابة لتاريخ هذه الرسائل الدينية ، وإنما استلهمها رمزيا لنقد الحاضر الملتبس والتبشير بعالم أفضل يمكن أن تتجدد فيه السلطة تجدد لمصلحة الناس جميعا ، ويزول الالتباس والازدواج بين مرجعية القيم المثالية العليا والممارسة العملية ، وتتوافر فيه إمكانية الانتصار النهائي للغايات العليا للرسالات

الدينية بالإضافة إلى الخبرات الإنسانية المتجددة التي تتمثل في المعرفة والعلم والتكنولوجيا .

على أن رواية «أولاد حارتنا» وإن كانت ذات رؤية إنسانية شاملة ، تتعلق بدلالاتها الجوهرية بالإنسان حيثما كان ، فإنها - في تقديرى كما ذكرت - كانت تجتهد لتقديم موقف نقدى بديل لمصر في مواجهة الموقف الذى أخذ يسود فيها منذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٥٩ كما سبق أن ذكرنا . ولهذا ، فالجبلاوى في رواية «أولاد حارتنا» هذا الجد الأكبر لكل أولاد الحارة ، الذى يطل دائماً على الحارة ويغمس أفقها بجسمه العملاق ووصاياه العشر منذ بداية نشأة الحارة حتى وفاته ، هذا الجبلاوى ليس من الضروري أن يُقرأ في الرواية باعتبار أنه الله الخالق لكل شيء ، وإن كانت بعض فقرات الرواية قد توحي بذلك ، على أنه قد يرمز إلى ما يعنيه الله في الأديان جميعاً من تجسيد معنوى لأشرف قيم الحق والعدل والمساواة والمحبة والعلم المثمر ، أى هو رمز لمرجعية مثالية تمثل في الوصايا العشر . إلا أن الله الخالق تحديداً وارد في الرواية في أكثر من موضع مما يجعل للجبلاوى دلالة خاصة مختلفة وإن تكن مراوغة . فنقرأ في الرواية مثل قول «همام» لأخيه «قدرى» :

(أنت مجنون وحق خالق الكون) ، وقول جبل : (الحمد لرب السموات على أنك تتمتع بصحتك) ، إلى غير ذلك . الجبلاوى إذن في الرواية ليس هو الله خالق الكون وزب السموات ، فضلاً عن هذا فإن الوصايا العشر في الرواية ليست هي الوصايا العشر أو الألواح العشر المذكورة في النصوص الدينية ، وإنما هي إشارة متروكة في الرواية مبهلة بغير تحديد ، وفي تقديرى أنها متروكة هكذا عن عمد لأنها وصايا تتجدد بتجدد احتياجات الحياة رغم جذورها التاريخية الثابتة . ولهذا ، فالجبلاوى في هذه الرواية في إيحاءه الآتى الذى يحدده السياق التاريخي لكتابة الرواية ، فضلاً عن القراءة الشاملة لأدب نجيب محفوظ ، هو أقرب ما يكون إلى ما تحمله ثورة يوليو من

شعارات ومبادئ وأهداف وقيم أساسية ، أى من مرجعية قيمية لسلوكها وممارستها ، كما كان الشأن فى كل ثورة حملتها الرسالات الدينية من قبل . لهذا لم تقصع الرواية عن حقيقة الوصايا العشر التى يحملها ويخفيها الجبالوى ، وإن يكن يحاسب أبناءه بمقتضاها .

وفى مواجهة هذه القراءة الآنية للجبالوى ووصاياه المبدئية العشر ، تجرى الممارسة السلوكية العملية المناقضة لهذه الوصايا ولهذه المرجعية القيمية عامة ، ففى مواجهة الجبالوى ووصاياه ، كان نظار الأوقاف ، والفتوات الذين يحمونهم ويشاركونهم فى الاستثثار برريع الأوقاف وحرمان أولاد الخارة منه فضلا عن إذلالهم . إنه التناقض بين المثال والواقع المتحقق ، بين القيمة المرجع والممارسة المضادة ، بين القدرة والنموذج النقيض .

خلاصة الأمر ، أن جوهر «أولاد حارتنا» فى تقديرى هو النقد القيمى الفكرى الرمضى للسلطة الناصرية للتناقض بين شعاراتها ومبادئها وبين بعض ممارساتها وخاصة تلك المتعلقة بالديمقراطية السياسية . إلا أن الرواية فى الوقت نفسه تسعى لتقديم رؤية تبشيرية تزيل بها هذا التعارض بين المثال والواقع ، بين السلطة والمجتمع ، بين السياسى والأخلاقى ، بين النظرى والعمل ، بين الموضوعى والذاتى فى مصر بشكل عام . وبهذا تكون هذه الرواية رغم بنيتها الرمزية الملحمية ، امتدادا للهم الأكبر الدائم الذى كان يشغل فكر نجيب محفوظ وضميره وإبداعه الأدبى ، وأعنى به قضية السلطة فى مصر .

نحن إذن ما نزال نواصل فى «أولاد حارتنا» مع نجيب محفوظ ما بداه فى رواياته الثلاث الأولى من اهتمام وهم بقضية السلطة فى مصر . بل لعلنا نجد هذه القضية مستمرة فى بعض رواياته التالية لأولاد حارتنا وإن اتخذت أشكالا مختلفة ، فقد تتخذ السلطة شكل الأب المفتقد كما فى رواية «الطريق» ، أو اليقين المفتقد كما فى رواية

«الشحاذة» أو قد نعود إلى ما يشبه «أولاد حارتنا» في روايات أخرى  
لعل أبرزها وأقربها رواية «الحرافيش» .

ولنحاول الآن أن نختبر هذا الغرض بتحليل داخلي لبنية الرواية .

تتكون الرواية من خمس مراحل . على أنه رغم تنوع هذه المراحل  
واختلافها ، من الناحية الفلسفية والقيمية ، فإننا نستطيع أن نتبين  
بعض الثوابت الأساسية فيها جميعا . ولنبدأ بالثوابت المادية وصولا  
إلى الثوابت المعنوية والقيمية .

لعل أول هذه الثوابت هو الثابت الجغرافي . فنحن طوال هذه  
الرواية نتحرك في حارة معينة معروفة من حوارى القاهرة ، نتحرك  
بين تضاريسها العامة والفرعية ، وتكاد الحارة في هذه الرواية أن  
تكون صورة واقعية دقيقة لحوارى وأزقة ومنعطفات منطقة  
الجمالية .

حقا إن بعض هذه الحوارى سوف تنتقل مع حركة الرواية  
الفلسفية من مسماها المكانى إلى مسماها المعنوى ، فتصبح لدينا مع  
تطور الرواية حارة «جبل» وحارة «رفاعة» وحارة «قاسم» . إلا أن  
الجغرافيا المكانية تظل ثابتة . وهى جغرافيا مكانية محدودة ، ولكن  
الرواية تعدها في مستهل صفحاتها الأولى : أصل مصر أم الدنيا ، وهذا  
ما ينقل الجغرافيا القاهرية المحدودة ، إلى الجغرافيا المصرية الأكثر  
اتساعا وامتدادا ثم إلى الجغرافيا الأرضية الإنسانية الشاملة . ويكاد  
المكان المحدد يفقد بهذا لا مجرد محدوديته ، بل يفقد مكانيته كذلك  
ويصبح دلالة قيمية فنية تاريخية شاملة .

وحول هذه الجغرافيا المكانية المحددة ، تشير الرواية دائما إلى  
ثابت جغرافى آخر هو الخلاء . ففى هذا الخلاء كان يعيش الجبلأوى  
وحده قبل بنائه الحارة ، ويكاد يشكل الخلاء في الرواية أكثر من دلالة  
رمزية ، فهو المطلق حيناً ، وهو ساحة الطرد والوحدة والحرمان من  
رحمة الجبلأوى حيناً آخر ، أو هو ساحة الهروب من طغيان الفتوات

حيناً ثالثاً ، وهو ساحة العدوان والمعارك حيناً رابعاً ، وهو ساحة التأمل والاستلهام حيناً خامساً ، وهكذا تتنوع دلالة الخلاء تنوعاً معنوياً وقيمياً .

وإلى جانب هذا الثابت الجغرافى المتمثل فى الحارة والخلاء ، هناك الثابت اللغوى الذى يعمق الطابع الجغرافى المحدد ، ويضفى عليه دلالاته المحلية الخاصة ، أو يؤكد له باستمرار هذه الدلالة ، ويتمثل هذا فى لغة الرواية ، سواء فى بعض سردها ، أو فى حواراتها . فبالرغم من أنها لغة عربية رصينة قد ترتفع أحياناً إلى مستوى التعبيرات الأسطورية والشعرية ، فإنها زاخرة بالتعابير والأهازيج الصارخة بشعبيتها القاهرية . وتكفى الإشارة لبعض نماذج منها مثل : «ياداهية دقّى» و «مط بوزة» و «العجل وقع هاتو السكين» و «وطى البصلة» و «يمحنى ديل العصفورة» و «نقطننا بسكوتك» و «ياملبس حدان الطرح» و «يا عجوزيا قارح» و «فتك بعافية» و «يفك حضره» و «يا خبر أسود» إلى غير ذلك . وبهذه الجغرافيا اللغوية يتعمق كما ذكرنا الطابع القاهرى الخالص للرواية .

وتنقلنا هذه الجغرافيا اللغوية إلى جغرافية بلاغية تكاد أن تكون ثابتاً من ثوابت الرواية كذلك ، وتتمثل فى سيادة التشبيهات الطبيعية . فالرواية تتحرك فى سردها الوصفى بالعديد من التشبيهات الطبيعية ، أى محاولة تفسير بعض الحالات النفسية أو المعنوية بما يشابهها من حالات مادية أو طبيعية . وما أكثر أمثلة هذه التعابير التى تكاد تشكل البنية البلاغية للرواية ، وتكفى الإشارة كذلك إلى بعض نماذجها مثل : «انطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق من فيه عند العطس بغير ضابط» ومثل : «إنه متهم دون ذنب جناه كالقطة التى تسقط فوق رأسى لأن الريح أطاحت بها» ومثل «دموعك إن هى إلا عرق الخيث الذى يمتلىء به جسدك» ومثل : «وإذا بالغضب يخفى فجأة كأنه شعلة رُدمت بتراب كثيف» ومثل : «واكفهر الوجه الكبير حتى حاكى

لونه النيل في احتدام فيضانه» ومثل : «فقاطعه الأب بصوت كضربة الفأس في الحجر» ومثل : «كالثوب المنشئ بعد نقهه في الماء» ومثل : «وانقضى الفزع على النفوس كما تنقضى الحدادى على الفراخ» ومثل : «تكاثف الجحد كقطع الليل» إلى غير ذلك . وتكاد هذه التشبيهات البلاغية رغم قيمتها الجمالية الخاصة ، أن تكون امتدادا وتعميقا معنويا للواقع الجغرافى المحدد الخاص التى تصدر فيه وعنه ، وأعنى به الواقع المصرى القاهرى .

ـ ومن هذه الثوابت الجغرافية واللغوية والبلاغية ننتقل إلى الثوابت المعنوية الأساسية في الرواية وفي مقدمتها شخصية الجبلاوى التى يهيمن وجودها على الرواية كلها منذ بدايتها حتى نهايتها ، حتى بعد إعلان موت الجبلاوى في الجزء الخامس الأخير . ذلك أن عرفة بطل هذا الجزء الخامس يسعى للقاء الجبلاوى ، ثم يسعى إلى إعادة الحياة إليه بعد موته . والجبلاوى - كما سبق أن ذكرنا - هو رمز لمرجعية القيم الإنسانية الأساسية التى يدور حولها الصراع طوال الرواية ، من أجل تحقيقها وترسيخها . إنها قيم العدل والمساواة والحق والكرامة التى ينبغى أن تسود بين البشر .

فالجبلاوى هو جد أولاد الحارة جميعا ، وهو مالك أرض وصاحب أوقافها ، وهو الراغب والشارط - بحسب الوصايا العشر - توزيع ريع هذه الأوقاف بالتساوى والعدل على أهل الحارة جميعا . ولهذا فالمعركة طوال الرواية حول الجبلاوى ليست مجرد معركة معنوية قيمية أخلاقية ، بل تركز على أساس مادى موضوعي هو ملكية الأوقاف وضرورة توزيع ريعها على أولاد الحارة . على أنه في مواجهة هذه المرجعية القيمية الموضوعية الثابتة طوال الرواية والتي يدور حولها الصراع . هناك ثابتان آخران يكملان هذه المرجعية تكميلا ضدياً هما : نظار الوقف الذين يسيطرون طوال الأجزاء الخمسة للرواية على ريع الأوقاف وعوائدها ، ويحتكرونه لصالحهم وحدهم ويحرمون منه مستحقه من أولاد الحارة جميعا .

إن هؤلاء النظار هم ممثلو السلطة الحاكمة المستبدة المستغلة التي تتنوع وتختلف أشخاصهم وأسماءهم وأساليبهم طوال الرواية ، ولكنهم جميعا رمز ثابت من رموز الرواية ومحور أساسى من محاور الصراع فيها . على أن نظار الأوقاف ينقسمون طوال الرواية إلى ثابت ثان آخر هو امتداد لهم وأداة من أدوات سلطتهم القمعية هم الفتوات . إنهم رمز ثابت كذلك على اختلاف أسمائهم وأساليبهم ومواقعهم طوال الرواية . إنهم الجهاز القمعى العمل للسلطة . وقد يرتبط بهذه السلطة ، وجهازها القمعى بعد ثالث يمثل القمع المعنوى ، أو بتعبير آخر : التغيب المعنوى عن المرجعية القمية وهو الحشيش والمخدرات عامة . فيكاد الحشيش في الرواية أن يكون ثابتا كذلك من ثوابتها وجهازا آخر من أجهزتها للسيطرة والقمع . إنه يفسد أولاد الحارة ويغيبهم عن حقوقهم ، كما يغيب السلطة نفسها عن واجباتها إزاء حقوق هؤلاء الأولاد !

والرواية تعبر عن الحشيش وعن جلساته في مختلف مواقفها ومراحلها تعبيرا بالغ الرقة والعذوبة والنعومة ، تعميقا وتأكيدا لدلالته التغيبية مثل : «رائحة الحشيش الغنائية» ومثل «ودارت الجوزة كسلاك في حلم ، وغنى الماء في القنينة وتثاءب الانسجام» إلى غير ذلك .

وهكذا تقوم بنية الرواية منذ جزئها الثانى على وجه التحديد على ثنائية ضدية استيعادية تتمثل من ناحية في الجبلاوى وشروطه العشرة كمرجعية أخلاقية ومعنوية وقانونية ، وموضوعية وتتمثل من ناحية أخرى في النظار والفتوات والحشيش كقوة انتهاك لهذه المرجعية وخروج على شروطها .

على أن هذه الثنائية الاستيعادية بين الجبلاوى وصاياها العشر من ناحية والنظار والفتوات والحشيش من ناحية أخرى ، تتمثل في ثنائية أخرى هى الأصل لهذه الثنائية ، وهى ثنائية تتبغ منذ البداية

من الجبلاوى نفسه وتمثل في ولديه : «أدهم» وهو الزمن الفنئ لأدم في الرواية ، و «إدريس» وهو رمزها الفنئ لإبليس أو الشيطان ، ومن أدهم يتسلسل نسل جبلاوى الولاء وأدهمى الطبيعة لو صبح التعبير ، وإن تنوعت فضائله ودعاويه ورسالاته ، ويتمثل في « جبيل » و «رفاعة» و «قاسم» ، وهى الرموز الفنية لأصحاب الرسائل الدينية الثلاث ، ويضاف إليهم «عرفة» وهو الإضافة المعرفية العلمية التكنولوجية العصرية لهذه الرموز الدينية . ومن «إبليس» يتسلسل نسل نظار الأوقاف والفتوات . على أنه بين نظار الأوقاف والفتوات ثنائية أخرى قد تصل كذلك إلى حد الإبادة والاستبعاد عندما يحاول أحد نظار الأوقاف الاستئثار بريعتها دون الفتوات كما حدث في مرحلة «عرفة» .

وهكذا يتحدد معمار الرواية تحديدا واضحا وحاسما في هذا الصراع المستمر الذى يكاد أن يكون مطردا نمطيا بين نسل «أدهم» ونسل «إدريس» . على أنه ليس مجرد صراع أخلاقي مطلق بين الخير والشر ، وليس مجرد صراع ميتافيزيقي بين مفاهيم وقيم مطلقة ، وإنما هو صراع عملي حول مصالح ، حول ملكية أرض ، ونظام حكم ، وفلسفة علاقات محددة بين أولاد الحارة الواحدة . ولا شك أن هذا الصراع الذى عبرت عنه الرواية تعبيرا رمزيا هو صراع تاريخي إنساني شامل ، كان وما يزال جوهر الصراع البشرى عامة منذ نشأة المجتمع وظهور الملكية الفردية حتى اليوم . إلا أن الرواية وإن عبرت عن هذه الدلالة الإنسانية التاريخية العامة ذات العمق الدينى ، فإنها قد عبرت عنها بأدوات ورموز وأماكن ومسميات وأساليب تعبير مصرية خالصة ، وعبرت عنها كإجابة نقدية توجيهية تبشيرية - كما سبق أن ذكرنا - في مواجهة الأزمة التى كانت تمر بها الأوضاع المصرية عامة ، ونظام الحكم المصرى خاصة في المرحلة الناصرية ، ابتداء من عام ١٩٥٢ ، ولا تتوقف الدلالة النقدية التوجيهية التبشيرية للرواية عند عام ١٩٥٩ ،



وهو العام الذى بدأ فيه نشر الرواية ، بل تمتد هذه الدلالة النقدية حتى يومنا هذا ، وتستظل ممتدة مابقى هذا الصراع وهذه الثنائية الضدية الاستيعادية بين المثال والواقع ، بين سلطة الحكم ومصالح الناس وحقوقهم .

والرواية لا تقول كلماتها فى فصلها أو جزئها الخامس الأخير ، بل لعل هذا الجزء الأخير أن يكون بلورة وتنمية وخلاصة لمجمل أجزائها الخمسة .

ففى الجزء الأول يبرز الصراع بين أدهم وإدريس بسبب اختيار الجبلاوى لأدهم مسئولاً عن إدارة الوقف بما يؤهله ذلك لوراثته . وهكذا نتبين منذ البداية أن الصراع لا يحدث بين قيمتين معنويتين أخلاقيتين ، بل بين سلطة ومصصلحة .

على أن أدهم سرعان ما يطرد من حديقة الوقف ، ومن حياة النعيم التى كان يحياها فى هذه الحديقة بسبب وقوعه فى خديعة نسجها له أخوه إدريس . على أن المهم هو أنه فى هذه المرحلة الأولى من مسيرة التاريخ الإنسانى فى هذه الرواية ، كان أدهم يحلم بأن يظل مستمتعاً طول حياته بالنعيم دون أن يقوم بعمل أو جهد اللهم إلا الغناء والاستمتاع بالسعادة ، وهو الحلم الإنسانى الأول الذى تسعى مسيرة «الرواية — الإنسان» أن تحققه بالعمل ، أى أنه لا سبيل إلى تحقيق سعادة ونعيم اللا عمل إلا بالعمل نفسه . هذا هو بعد من أبعاد فلسفة الرواية .

وننتقل فى الجزء الثانى من المسيرة إلى مرحلة «جبل» . ومع هذه المرحلة تبدأ مرحلة عمرانية جديدة ، فلم تعد الجغرافيا الأولى للعالم محدودة بالبيت الكبير الذى يقطنه الجبلاوى وبحديقته الغناء فى مواجهة الخلاء ، بل انتشر العمران بفضل أموال الوقف ، وتم تخطيط الحارة تخطيطاً يكاد يعبر عن ثنائية الأوضاع فى الحارة . فهناك البيت الكبير ، حيث يقيم الجبلاوى الذى أغلق بابه واعتزل الدنيا . ويمتد

أمام هذا البيت الكبير صفان من البيوت : صف على رأسه ناظر الوقف ، وصف آخر مواز له على رأسه بيت الفتوة .

وهنا تبدأ قصة استئثار الناظر بريع الوقف والثقتير في الأرزاق وحرمان بقية أولاد الحارة من ذلك الربيع معتمدا على نيابيت الفتوة وأتباعه . ويكون أبناء أدهم وإدريس قد تناسلوا . أما أبناء «أدهم» فهم الفقراء المطحونون المذلون المهانون في الحارة ، وأما أبناء «إدريس» فهم موزعون بين عائلة الناظر والفتوات . ويزداد في الحارة الفقر والبؤس والقدارة والمهانة والتسول من ناحية ، والقمع والاستغلال من ناحية أخرى ، كما يصبح الحشيش هو وسيلة للإلهاء والتخدير والتغيب .

على أن أبناء الحارة من سلالة «أدهم» الذين تمثلهم عائلة آل حمدان ، يقررون الذهاب إلى الناظر للاحتجاج على سوء الفقر وسوء الأحوال وسوء المعاملة ، طالبين العدالة في توزيع حقهم في الوقف . وينكر الناظر عليهم حقهم ، ويطردهم من حضرته ، ويسعى للاتفاق مع الفتوة وأعوانه لتأديبهم . وفي بيته كان «جبل» . تبنته زوجة الناظر منذ أن كان طفلا صغيرا فقيرا منبوذا ، ولكنه كان من أبناء آل حمدان . ولهذا يرفض السكوت على ما ينتظر أهله من عسف . ويحسم أمره في مواجهة الناظر وزوجته ، ويقرر أن ينتقل إلى صف أهله ، وينفذ هذا بالفعل ، ويقود معركة أبناء «أدهم» ضد الناظر والفتوات ، وينتصر عليهم في النهاية بالقوة والحيلة وحسن التدبير .

وهكذا انتقل الحكم إليه في النهاية فكان مثالا للعدل والقوة والنظام في الحارة . ولكنه اهتم بآل حمدان فحسب ولم يهتم بالآخرين من أولاد الحارة من «أبناء أدهم» . ولهذا لم تكن رسالته رسالة لكل الحارة ، أو رسالة إنسانية شاملة . بل اقتصر على آل حمدان . وهي إشارة رمزية إلى حدود الرسالة الموسوية . على أنها

خطوة أولى في المسيرة الإنسانية التي ستنتامى وتتسع في الخطوات التالية .

فالحال لا يدوم ، فما أن ينقضى عهد «جبل» حتى يعود الظلم والاستغلال والامتهان إلى الحارة ، إلى أولاد الحارة جميعا . فتبرز وتقوى سلطة الناظر المستبد المستغل متسلحا بنباييت الفتوات . يتغير اسم الناظر وتتغير أسماء الفتوات ، ولكن النظام نفسه يعود إلى ما كان عليه قبل «جبل» . وأولاد الحارة المساكين ، يطمعون بما كان يحلم به «أدهم» . فقد أصبحوا «أقفية» متوزمة من الصفع ، وأدبارا ملتبئة من الركل ، وعيوننا يرهاها الذباب ، ورؤوسا يعشش فيها «القميل» . وكما ظهر «جبل» من بين أبناء «أدهم» يظهر «رفاعة» ، الذى يأخذ في التصدى للظلم والاستغلال والقمع السائد . ولكنه يسير مسيرة غير مسيرة «جبل» . وعندما يقال له : «إن جبل بالجبروت أقام العدل ، وأنه أراد بالفعل استخلاص الحق بالحسنى ، ولكنه اضطر إلى استخدام القوة دفاعا عن نفسه» كان رد «رفاعة» : «إن حارتنا في حاجة إلى الرحمة» ويقول «رفاعة» : «إن الذى يحول بيننا وبين السعادة هو العفاريث الكامنة في أعماقنا» ، ولهذا كان يرى أن رسالته المناهضة للظلم السائد هى طبى العفاريث الكامنة في الأعماق .

وهكذا نتبين أنه إذا كان «جبل» قد استعان بالقوة والتدبير أساسا لاستعادة الوقف ، وكان رمز ذلك في الرواية هو اكتشاف الثعابين والقضاء عليهم ، سواء أكانت هذه الثعابين ثعابين حقيقية ، أم ثعابين تتمثل في الناظر وفتواته ، فإن «رفاعة» ركز اهتمامه وطبه على النفوس ، «لإصلاحها وتطهيرها من الحقد والطمع والكراهية وسائر الشرور التى تفتك بأهل الحارة» ، وكانت العفاريث الكامنة في الأعماق هى رمزها في الرواية ، لقد أراد «رفاعة» أن يفتح أبواب السعادة بلا وقف ولا قوة ولا جاه . ولكن الأمر انتهى به إلى أن يصرعه الفتوات . وينقسم أتباعه من بعده حول رسالته : هل هى الأقنصار على

علاج المرض علاجاً روحياً تطهيرياً واحتقار الجاه والقوة، أم هي التمسك بكل الحقوق في الوقف وإعادة توزيعه بالعدل؟

وتنتقل بنا المسيرة إلى مرحلة رابعة. لقد تغير الزمن ولكن لا شيء تغير في الحارة. «فالفقير ما يزال مستثرياً، والوجوه ما تزال ذابلة مهزولة، والثياب مرقعة، والبيت الكبير ما يزال قابعاً وراء أسواره غارقاً في الصمت والذكريات» وإلى اليمين يقبع بيت الناظر الجديد، وإلى اليسار بيت الفتوة الجديد أيضاً. لعل الجديد في الحارة هو انقسام الحارة إلى حي آل جبيل، وحي آل رفاعه، إلى جانب حي الفقراء وهو حي الجرابيع. ومن هذا الحي الأخير، حي الجرابيع، يخرج شاب يتيم اسمه قاسم، ينتسب من بعيد إلى جده الجبلاوى. تبناه عمه زكريا ببيع البطاطا وساعده في بيع البطاطا عندما كبر، ولكنه سرعان ما تحول إلى راعى أغنام، يرعى أغنام آل جبيل وأغنام آل رفاعه. وانبثقت في نفس قاسم رغبة في أن يكون مثل «أدهم» و«جبيل» و«رفاعة». وأخذت تنمو في الحارة سمعته باعتباره أميناً وحكيماً. وكان يرى أن الحكمة أجل من الفتوة، ولكنه لم يكن يرفض القوة، على أن العبرة عنده كانت بالقوة التي تصنع الخير.

وهكذا راح يتصدى للناظر والفتوات شأنه في ذلك شأن «جبيل» و«رفاعة». ويبحث إليه الجبلاوى بخادمه قنديل - أو هكذا تصور له - لينقل إليه رسالته التي يقول له فيها: «أولاد الحارة جميعاً أحفاده على السواء. ليس هناك تفرقة بين حي وحي، بين فقير أو غنى. وإن الوقف ميراثهم على قدم المساواة» ويقول له فيها: «إن الفتونة شر يجب أن يذهب، وأن الحارة يجب أن تكون امتداداً للبيت الكبير، أى أن يكون البيت الكبير وصاياه العشر هو مرجعيتها في مختلف ممارساتها.

ويبدأ قاسم جهاده غير طامع في نصيب من الوقف، وإنما يريد الخير الذي أراده جده الجبلاوى، وحددته وصاياه العشر. على أن

قاسم يضيف إلى هذه الوصايا قوله : بأنه إذا انتصر فلن يحرم النساء من ريع الوقف سواء كانت سيدة أو خادمة . ولكن هل يستند في تحقيق رسالته إلى القوة «كجبل» أم إلى الحب «كرفاة»؟ ويجيب عند سؤاله : «القوة عند الضرورة والحب في جميع الأحيان» . ويقول : سنرفع النبائيت كما رفعها «جبل» ، ولكن في سبيل الرحمة التي نادى بها «رفاعة» ، ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى نحقق حلم «أدهم» هذه هي مهمتنا لا الفتونة .

وهكذا تكتمل الرسائل جميعا في رسالة واحدة ، ويكون من الطبيعي أن يقول قاسم : «إذا نصرني الله ، فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى» . وتستخدم المعركة وتنتصر رسالة قاسم .

وتمر السنون ، ولا يلبث النظام السابق أن يعود ، نظام النظارة المستبدة المستغلة ، والفتونة القامعة . وتنقسم الحارة إلى ثلاثة أقسام ، بين آل جبل وآل رفاة وآل قاسم ! أما أهل الحارة فانقلبوا إلى ما كانوا عليه في الزمان الأسود ، «تنهكهم الفاقة» ، وتتهددهم النبائيت ، وتنهال عليهم الصفعات . وتنتشر القذارة والذباب والقمل ، ويكثر المتسولون والمشعوذون وأصحاب العاهات .

وتنتشر عبارة «ما في فايذة» و «أحسن ما نفعل سكرة أو تحشيشة» !

ويبرز في هذا الإطار «عرفة» الساحر ، أي رجل العلم والتكنولوجيا ، أو رمز رجل العلم والتكنولوجيا ، ليتصدى لهذه النكسة التي عدت على الحارة عقب أيام قاسم . ويتساءل : نحن في حاجة إلى قوة تخلصنا من الفتوات ، قوة تفوق سلطة الناظر ونبائيت الفتوات . ويعلمه أو يسحره ينجح في صنع زجاجات تتبجر عند إلقائها وتفتك بمن يتعرض لها ، وأخذ يستعد للمعركة الفاصلة . ولكنه أراد أولا أن يلتقى بالجبلاوى وأن يعرف شروط الوقف العشرة ، وأن يطلع على الكتاب الذي طرد بسببه «أدهم» .

واستطاع أن يتسلل إلى البيت الكبير سعياً للقاء الجبلاوى في خلوته . ولكنه يضطر إلى قتل خادم عجوز من خدم الجبلاوى حتى لا ينكشف تسله داخل البيت الكبير .

وعندما يخرج من البيت دون أن يتمكن من رؤية الجبلاوى يعرف أن الجبلاوى قد مات . إنه لم يقتله ، وإنما قتل خادمه العجوز على الرغم منه . هل مات الجبلاوى حزناً على مقتل خادمه العجوز ؟ هل ثورة «عرفة» على أن يتسلل إلى بيت الجبلاوى وإلى ما يقرب من خلوته ، كانت إيذاناً بنهاية الجبلاوى ؟ هل اكتمال كل الرسائل برسالة قاسم ، بالإضافة إلى أن القدرة العلمية التي يمتلكها عرفة تؤذن بنهاية الجبلاوى كمرجعية قيمة ؟ فالجبلاوى ترك لعرفة وصية أبلغتها له خادمته يقول فيها «لعرفة» «مات وهو راض عنه» . على أن عرفة راح يحلم بأن يرد الحياة إلى الجبلاوى بعلمه وسحره . وينجح عرفة في صنع عدد من الرجاجات القابلة للتفجير ، وينجح بفضلها في التخلص من واحد من كبار الفتوات . ويكشف الناظر أن عرفة وراء ذلك ، وأنه يملك هذا السلاح الحاسم ، الذي لا تقف أمامه النبائيت . ويستدعيه الناظر ، ويبلغه أنه مثله يريد أن يتخلص من فتوات الحارة ، وأنه يريد أن يستعين بزجاجاته المتفجرة لتحقيق الهدف .

ولكن كيف يتحالف عرفة مع الناظر الذي كان هو نفسه هدفاً من أهداف رسالته للقضاء على الظلم والاستبداد ؟ على أنه يضطر إلى ذلك التحالف ، فالناظر يعرف سره ، ويستطيع أن يفشيه ويترك «عرفة» لانتقام بقية الفتوات وأعدائهم .

وهكذا يتحالف العلم مع السلطة المستبدة ! معنى هذا أن السلطة المستبدة تستطيع أن تستخدم العلم لصالحها ، لتأكيد وحماية استبدادها ! فالناظر ما كان يريد التخلص من الفتوات بسبب ظلمهم

وعدوانيتهم ، وإنما بهدف الاستئثار بريع الوقف الذى كانوا يشاركون فيه .

ليس بالعلم وحده إذن ينقشع الظلم وتسود السعادة وتتوافر الحقوق لأصحابها ! ولهذا كان «عرفة» يؤكد ضرورة إعادة الحياة إلى الجبالوى ، أى ضرورة المرجعية القيمية إلى جانب سحره أو علمه . على أن جانباً من هذا كان متحققاً فى حياة ومسلك «عرفة» نفسه ، ويتمثل فى زواجه «بعواطف» . «فعواطف» كانت باسمها وبسلوكها وجمالها رمزا للمحبة والإخلاص والعمق الوجدانى الروحى والتفانى فى الخدمة والعمل .

كان زواجهما يعبر تعبيرا رمزيا عن وحدة العلم والشعر ، وحدة التكنولوجيا والقيم الإنسانية . على أن الناظر ينتصر عليهما ، وينجح فى استغلال علم وتكنولوجيا «عرفة» فى التخلص من الفتوات ، إلا أنه فى الوقت نفسه نجح فى احتواء «عرفة» و «عواطف» ، بفرض وجودهما فى قصره ، وحرمانهما من الخروج منه ، بحجة حمايتهما من أولاد الحارة ، بل وفى إغراقهما بالمتع والراحة والحشيش حتى يتملكهما تماما . على أنه فى هذا المناخ من الاسترخاء والاستمتاع والتخدير ، تكتشف «عواطف» أن «عرفة» يخونها مع امرأة فى هذا القصر . وقد تكون هذه الخيانة فى الرواية مجرد رمز لخيانة أكبر وأشمل هى خيانة «عرفة» لعواطف «الرمز» وخيانتته للعلم نفسه بتحالفه مع الناظر رمز الظلم والاستبداد والاستغلال ، ولهذا تقرر «عواطف» الانفصال عن «عرفة» والهروب من قصر الناظر ، وتعود إلى بيتها المتواضع فى الحارة . ولكن عرفة سرعان ما يلحق بها ، بعد رفضها المتكرر له ، وتقبل معذرتة وتدمه عندما يؤكد لها أنه لا عودة إلى الناظر ، وأنه يخطط للهرب معها خارج الحارة . ولكن الناظر كان لهما بالمرصاد . فيقبض رجاله عليهما ، ويدفنانهما حين فى الخلاء .

على أن «عرفة» كان قد استطاع أن يتخلص من كراسه الحاوى

لأسرار سحره وعلمه ، ويسعى صديقه «حنش» للعثور على هذه الكراسى ومواصلة طزيق عرفة . وقيل في الحارة : «ان بعض الشبان قد أخذوا يخفون من الحارة ، وانهم اهتدوا إلى مكان حنش وانضموا إليه ، وانه يعلمهم السحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود» ولكن هل بالسحر أو بالعلم وحده في أيدي حفنة من أولاد الحارة يتحقق الخلاص ؟! في حوار بين «عرفة» و «عواطف» تقول له «عواطف» :

«في زمن قصير حقق «قاسم» العدالة بغير سحر!» فإرد عليها «عرفة» قائلا : «وسرعان ما ولت . أما السحر فأثره لا يزول ، لا تستخفى بالسحر يا عسلىة العين ، إنه لا يقل عن حيننا خطرا ، ويخلق مثله حياة جديدة ، ولكنه لا يؤتى أثره الحق ، إلا إذا كان أكثرنا سحرة!» .

معنى هذا أن القضية ليست قضية السحر في ذاته ، وإنما أن يمتلك أكثرية الناس هذا السحر ، أو هذا العلم . ولكن هذا الانتشار للسحر أو للعلم لن يتأتى إلا «إذا تحققت العدالة ، إذا نفذت شروط الواقف ، إذا استغنى أكثرنا عن الكد وتوفروا على السحر» هكذا يقول «عرفة» «لعواطف» إن العلم إذن لا يسهم فحسب في تحقيق العدالة ، بل يسهم كذلك في تكريسها وحمايتها من الانكماش ، ولكن اشترط أن يصبح العلم ملكا لأغلبية الناس .

وتعود الحارة في النهاية كما كانت من قبل يسودها جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب ، ولكن الناس كانوا يتمسكون بالأمل «وكانوا كلما أضرب بهم العسف قالوا : لا بد للظلم من آخر ، ولليل من نهار ، ولنرين في حارتنا مصرع الطفيان ومشرق النور والعجائب» .

وهكذا تنتهى أولاد حارتنا بالأمل ، ومواصلة طريق البحث عن خلاص . وتكاد تتبلور كلمتها الأخيرة في هذا اللقاء الحميم بين «عرفة» المعبى عن المواصلة العملية والإضافة العلمية لكل المجاهدات السابقة من أجل استعادة الحق وتوفير العدالة والمساواة والخير



للناس جميعا ، وبين «عواطف» التي تعبر عن العمق الوجداني والروحي للإنسانية الإنسان .

فهل نستطيع أن نتبين في هذا اللقاء الحميم بين « عرفة » و « عواطف » ثورة أكثر تطورا وتقدما وعمقا من هذا اللقاء الذي يغلب عليه طابع التوازي والثنائية في نهاية «الثلاثية» بين «أحمد» الشيوعي و «عبد المنعم» الإخواني اللذين حملتهما عربة واحدة إلى معتقل الطور ؟ !

إن «أولاد حارتنا» - لو صح هذا - هي امتداد للثلاثية في مرحلة جديدة من تاريخ مصر ، وبأسلوب مختلف يتلاءم مع الأوضاع التي كانت سائدة عند صدورهما ، والتي كانت «أولاد حارتنا» - كما ذكرنا من قبل - تعبيرا نقديا لها . على أن روايات نجيب محفوظ التي صدرت بعد «أولاد حارتنا» تكاد أن تكون امتدادا لها ، تتوزع فيها أولاد حارتنا حاملين الدلالة الإنسانية العميقة لرواية «أولاد حارتنا» بمستوى أو بآخر ، بأسلوب أو بآخر . ونستطيع أن نتبين هذا بوجه خاص في روايات «الرص والكلاب» و «الطريق» و «السمان والخريف» و «الشحاذ» و «حكايات حارتنا» و «الحرافيش» وغيرها .

ولهذا تكاد رواية «أولاد حارتنا» أن تعبر عن النسق العام لأدب نجيب محفوظ في مختلف تجلياته ودلالاته . إنها رد فعل فكري نقدي أخلاقي روحي لثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولكنها تخرج عن حدودها الآنية اللحظية المحددة لتعبر عن همومنا المصرية عامة ، وتطلعنا ومجاهداتنا لتجاوز هذه الهموم ، شأن جميع روايات نجيب محفوظ ، إلا أنها في الوقت نفسه تقيض عن حدودنا المصرية إلى حدود إنسانية شاملة دفاعا عن طريق الكرامة والسعادة والخير والمساواة والحرية والتقدم للإنسان في كل مكان .

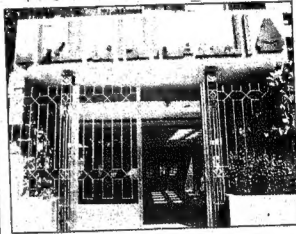


# هيئة الكتاب

بيت الثقافة لكل قارئ مصري وعربي

وطباعة الكتاب بشكل رائع لا يقل عن مستوى الكتاب في البلاد المتقدمة من حيث الإخراج والطباعة وبالمقطع لا يقتصر الأمر على اختيار الكتاب وطباعته بل لابد من أن يصل الكتاب إلى القارئ في مصر وفي خارج مصر ومن أجل ذلك وضعت الهيئة المصرية العامة للكتاب أكبر شبكة لتفانيه لتوزيع الكتاب المصري وذلك من خلال محاور توزيع متعددة.

إن إنتاج الكتاب يعتبر مهمة جليلة لها مراحلها التي سبقت لها هيئة الكتاب أكثر الأجهزة الثقافية امتيازاً وقادرة على اختيار المفيد والجديد في هذا المجال ولم يقتصر الأمر على اختيار الكتاب فقط بل أمدد الأمر إلى طباعة الكتاب حيث لدى الهيئة أحدث الطابعات والمكينات الذين يقومون على إخراج



مكتبة الاسكندرية : ٧٨-٧٩ / ٧٧٧٧٧  
منطقة الشيخ زايد بين المدن

**مكتبة**  
مكتبة  
مكتبة

وهذه المراكز يتم إمدادها في  
مطابعها لتفانيه وإصدارها بشكل عام مع  
الطابعات المتعددة.

**مكتبة**  
مكتبة  
مكتبة

أقسام ثلاثة لتفانيه وإصدارها في  
مكتبة في مبنى هيئة الكتاب في مكان يستوعب  
مكتبات المتفردين من العملاء بشكل مريح.

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

**مكتبة**  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

**مكتبة**  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

**مكتبة**  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

مكتبة  
مكتبة  
مكتبة

رئيس مجلس الإدارة  
د. د. سمير سرحان

إصدارات هيئة الكتاب  
تدافعة ريفية بأسماء ريفية

رقم الإيداع ١١٢٣٣٣ / ١٩٩٤ / ٠٢٢٧ - ٠٨ - ٩٧٧ I. S. B. N.



# جارليول

كبسولات زيت التوم النقي  
بدون إضافات

لحياة كلها حيوية ونشاط  
◀ وخالية من متاعب الكوليسترول

للصغار ▶ للرياضيين  
والكبار ▶ في كل الأنحاء

جارليول

لزيادة مناعة الجسم الطبيعية  
لزيادة مقاومة الجسم ضد الأمراض  
لتنشيط الذهن وتجديد الذاكرة  
لزيادة تحمل الجسم للمجهود اليومي الشاق

خذلك كبسولات

مع تحيات فاركو للأدوية

الثلث ٣ جنيهات

Bibliotheca Alexandrina



0422346

